كتاب الهلال

البؤساء

لفيكتور هيجو

الجزءان : الأول والثاني

تعريب
شاعر النيل
محمد حافظ ابراهيم

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٠ ــ ذو الحجة ١٣٧٢ ــ سبتمبر ١٩٥٣

No. 30 — September 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ــ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

البؤساء

لفيكتور هيجو

تعريب

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

الجزءان : الأول والثانى

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

اهـــداء

إلى الأستاذ الامام

انك موئل البائس ، ومرجع اليـائس .. وهـذا الكتاب ــ أيدك الله ــ قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضـعه صـاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسـماه : كتاب « البؤساء » ، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : (الرحمة فوق العدل) ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ،واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعـه الى مقـامك الأسنى ورأيك الأعلى ، لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن باسمك والتشرف بالانتمـاء اليك ، وثانيتهـا ارتيـاح النفس وسـرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجـل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقـدار كد الأفهـام ، وثالثتها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق ..

فليتقدم سيدى الى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيـا والدين ، وأن يساعدنى على اتمام تعريبـه للقارئين

كلمة فى التعريب

هذا كتاب « البؤساء » ، وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه ..

ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصل مبلغ علمى الى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف ابراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت الى لباب مصاصها ، وأخذت منها حاجتى ، لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء ..

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم فى الميقات ، وأستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى اذا نفذ الفكر الى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر الى مكامن حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت الى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت اليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج ، فاذا شمست احداهما وأزور جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن

الى أختها وترتاح الى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخــول المرود بين الجفن والجفن ، وأمشى بينهمـا مشية الحكيم فىالصلح بين القوم والقوم ، حتى ائتلف الذوقان وامتزج الروحان ، وضمت شمسيهما طفاوة ، واحتـوت بدريهما هالة ، وخلعت الأولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المعاني الافرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين ، وجنـدرها الذوق الشرقى ، وهى تسكن فى هذه المعانى العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شىء من مؤلفاتذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس الى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثلذلكالفكر ، الذى كنت بينا أراه يسابح الاجرام فىأفلاكها اذا هو يدارج النمال فى مدابها ، وبينا ألمحه بين ذروة العلم وشرفة القصر ، اذا هو بين قاع البحر وعميق النهر . فكم افلت من هجيرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة ، الى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته ، الى التمشى بين نفس الحبيب وريقته

ولا يزال الـكتاب فى كل أمــة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفـاتهم من الحكم والأمثـــال ، فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كمـا يصــدح(١) المطر ، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشدون لذلك الأمثـــال فينثرونهـا فيمـا يتخيرونه من الأقاصيص التى تدعو الى العظة ، وتصفح النفوس عنركوب سبل الغواية

---

(١) أخرجها مثلا . وكان من وساوس العرب ـ اذا خشوا سقوط المطر ـ أن يعمد أحدهم الى خيمته أو عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء أن يخطىء المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه كما قال عن نفسه : مثل المنجم الذهبى لا تصل الأيدى الى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا

وقد خار الله لى أن أعربه ، فاستعنته فأعانني، واستهديته فهداني ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال، الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطها من الاتقان، وألبسوها من البهجة لباسا ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها .

أرأيتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وانت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرىء لذة أسلوبه ، أن عبد الله ابن المقفع قد عربه عن الفارسية، لو لم يصل خبر ذلك اليك ؟ فسقيا لتلك الأقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها ، وعربى يعمل على كيدها . .

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم ، رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الأقلام أعوادا ، وما هو الا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع الى جنازتها أهلها وذوو قرابتها . .

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم ان هذا خذلان منك فأدركنا برحمتك وهيىء لنا من أمرنا رشدا . .

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام ، وأنا لا أعرف من هذه الزهور

شاعر النيل : محمد حافظ ابراهيم

قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات الا ما وقع تحت نظر العـرب فى تلك الجزيرة الجـرداء ، وما سمت اليه حضارتهم فى عهد الدولة الأندلسية ؟

أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعـارضين فيها وقفـة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليس رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسـماؤك اللهم . . أيدعى البعير — وهو ذلك المركب الخشن — بهذه الأسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفا فى هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أ بردا عظامى　　　الماء والفت بلا ادام(١)

وهو فوق راحلة طالع عـلى قتب يكاد يدمى عجـانه تحت شمس لا تكاد تأكل ظلها فى مفازة

تمشى الرياح بها حيرى مولهة　　حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حـد الاعجاز ، وأردتنـا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخـوان ، ونتبوأ أريكة « الأوتومبيل » تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخـارف(٢) ضـفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك

(١) تقول العرب : الابيضان عن الماء والفت ، والاحمران عن اللحم والخمر
(٢) جمع مخرف وهو المنتزه

المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحـائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ، ولا مرادفا فى اللغة يؤدى معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الاصلاح بيـد اللغة ، وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليـه . وهـذا باب الاشـتقاق وباب النحت لا يزالان بحمـد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين

كلمة للمعرّب فى المؤلف

ولد « هيجو » والقرن الغابر صبى فى مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرق بين أمسه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين فاذا الأول سيد القرون ، واذا الثانى نادرة البطون ، هذا يمشى على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدى بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الأول على سرير دولة الأيام ، وأخذ الثانى بصوجان دولة الأقلام ، فالتقت دولة العجب ، بدولة الأدب ، واجتمعت بدائع الاختراع ، ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتد من المغربين الى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المدنية

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات — وهى فى عالم السديم — أن سيرتقى بها الحال الى العيش فى هذا النعيم ؟ فتبارك الله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم

ولد هيجو واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة ، والقوم بين أسر التقليد ، وذل التقييد ، والأدب لم يبق منه الا الذماء ، فأنبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه الى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، رفعها الى المجمع

العلمي فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ، ولولا أنه كشف عن سره ، وأوضح عن بيـان عمره ، لأجزلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ، فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه، فظنوا أنه يسخر منهم، فلم يجيزوه الا يسيرا . وهبت بعد ذلك رياح سعوده، فأخذ بناصية القوافي ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح في ملكوته ما شاء الفكر ، وما زال يتنقل في تلك العوالم الخيالية حتى نودي به أميرا على دولتي النظيم والنثير ، وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم، ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحه من سجن التقييد وقـد وقف اذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فاذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الأطمار ، لأخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيمـا وضعوه من الأقاصيص التي تمثل أدوار تلك الأزمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى الى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام ، وأدارت رحاها الأفهام فما زال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه

ولاحت بعد ذلك تباشير الاصلاح في سماء الأدب ، وظهر كتابه الذي سماه نتردام دوباري Notre Dame de Paris فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيـه اللغة جنودها من الألفاظ والمعاني ، فاستعرضها صفا صفا ، وتفقدها حرفا حرفا ، ثم أبرزها الى ميـدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير

ولما قضى من الأدب لبانته ، وأخذ من الشعر حاجته ، هجر الشعر الى السياسة ، وما هي الا جولة من جولات الفكر حتى دعته السياسة الى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الأفئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها فى اكتشاف ما يستكن فى قرارة النفس وخلجات الفؤاد

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها(١) ، فركب سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفى به من بحر الى بحر ، وترمى به من عبر الى عبر ، وهو على ظهرها يطالع فى أفق الدهاء صحيفة الرجاء ، وقد وضع أمامه ابرة الأمل ، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلغته شاطىء آماله ، وحمد مغبة أعماله

وما كاد يتنسم الأفرنس نسيم الحرية حتى هبت ريح الاستبداد من رقادها ، وصفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على أكتافها واندفعت به ، حتى اذا بلغت سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك فى منفاه الجديد

فنزل الرجل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق الى عزمه الخمول ، وغادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها ، وبرت يمينه .. فانه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان فى حرب السبعين

ولبث هيجو فى منفاه ، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضع كتابه الذى سماه «نابليون الصغير» ، ونظم بعده كتاب «العقوبات» فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان عليه أشد غضاضة من تسليم سيفه الى يد عدوه فى يوم خذلانه

---

(١) كوكب الشىء معظمه

فيكتور هوجو : مؤلف البؤساء

وجاء ذلك الكتاب مثـال ما يملى الحق على القريحـة ، وتوحى الموجدة الى اليراع ، ووضع بعده كتاب «المشاهدات» وكتاب « البؤساء » الذى نعربه اليـوم ، وكم له غيرها من مؤلفات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه فى صباه « كأوراق الخريف » « وأناشيد الشفق » ، ومنها ما وضعه بعد عودته الى الوطن ككتاب « العام الأسود » ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد

كلمة للمؤلف فى البؤس

مثل البائس الذى سجلته يد المقادير فى سجل العناء ، وطوحت به فى ظلمات هــــذا الوجود ، فمضى يتخبط فى ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشى على أثره الشقاء ، تلعب به الايام لعب النكباء بالعود ويدب فى نفسه اليـــأس دبيب الآجال فى الاعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج فى يوم ريح صرصر عاتية ، فلبث معلقا فى خيط من الاجل تحت شفى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر فى كفن من الزبد ، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال ، تعلو به تارة الى مجرى الافلاك ، وتسفل به أخرى الى مسبح الاسماك ، حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت فى وجوده الأرض والسماء ؛ وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقـــاء فجعل يجالد تلك الامواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار العنيد ، حتى اذا نزح التعب قواه ، طواه البحر فى جوفه طى السر فى الفؤاد : ذلك مثل البائس فى هذه الحياة الدنيا

أما ذلك المجتمع الانسانى فمثله كالسفين أخذت فى ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الاعاصير واصطلحت عليها الانواء ، وألقت بها فى تلك اللجج التى تضل فيها الظنون والاوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح

فيها الخيال فيغرق ، اذا تدجت فهى ليالى الشـقاء ، واذا ثارت فهى براكين الماء . ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ، الى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها اليه مرة بالنداء وأخرى بالايماء ،لتستل حياته من يد الأجل. وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام بينه وبينها سد من الأمواج ، فهى لا تسمع نداءه ، ولا تنظر ايماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين

الجزء الأول

الفصل الأول

جان فالجان

أشرف على مدينة (دينى) رجل يضرب فى الأرض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان(١) النهار واكتهل اليوم الأول من شهر أكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما أدركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طول الشقة(٢) وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع فى منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة اليـــه تدعو الى الريبة فيه . لذلك ما نظره أحـــد من سكان تلك المدينـــة ومرت به خلجة شك فى أمره

وكان ربعة فى الرجال بادنا(٣) شديد الحول يضرب لونه الى السمرة طويل شعر اللحية قصير شـــعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض نيفت أعوامه على الأربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب(٤) خرجا ملأه بحاجه ولباناته

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيـــوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه ــ وكذلك ينكر ابن السبيل ــ وأخذ سمته الى دار المشيخة ، فمضى(٥) قدما فى احدى سبلها ، حتى اذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه

---

(١) مالت الشمس الى الغروب . (٢) السفر الطويل . (٣) ذو البدن السمين . (٤) أى حمل . (٥) أى سار الى الامام

فصعر(١) الجندى خده وتثاقل فى رد تحيته ، فمضى الرجل فى طريقه ونظر الجندى يترسم(٢) مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده

ولعله كان قادما من الجنوب ـ فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذى ركبه نابليون الأول قافلا من (كان) الى (باريس) منذ سبعة أهلة ـ وكأنه منذ أصبح ما تبلغ(٣) فما هو الا أن أفلت من دار المشيخة حتى تيمم النزل ، فلما دلف(٤) الى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد أحس بقدومه وان لم يمد اليه بصره : « ما سؤل الطارق ؟» فقال الرجل : «أكلة ونومة» ، قال : « لك سؤلك» ثم التفت اليه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : « أو تصل يدك الى وفاء حق ما تطلب ؟ » فضرب الرجل بيده الى جيبه وأخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة(٥) ما بداخله ، وجلس الى النار يصطليها ـ وقد كان مقرورا(٦) وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر فى الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود فى يده حتى كاد يأتى عليه(٧) الجوع فصاح بصاحبه : « اما آن ان آكل وليس هنا من هو أحوج منى الى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟ » فقال له رب النزل : « انى ليحزننى أن تنصرف عنى وأنت طاو ، فلقد سبقك الى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم ، وما منهم الا من هو أحرص منك على الطعام » فقال الرجل : « لن أبرح الأرض حتى أصيب ما أتبلغ به ، فلقد سايرت الشمس من شروقها الى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى، ومن العجز أن أبتغى عنه حولا » . فقال له صاحبه وهو يحاوره : « لقد

(١) شمخ بأنفه وتكبر . (٢) ترسم الاثر اقتفاه . (٣) تبلغ أكل الخبز .
(٤) دلف مشى . (٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .
(٦) المقرور الذى اصابه القر وهو البرد . (٧) اتى عليه اى أهلكه

بالغت فى محاسنتك كى لا أجبهك(١) بالرد ، وكرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع فأبيت الا الاصرار فاغرب عنى أيها الرجل ولا تلحف(٢) فى السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك فقد زهدنى فيك ما أقرأ عنك فى تلك الرقعة التى تراها بيدى وصاحبها لا تغيب عنه وساوس صدرك وانك لقريب العهد به ، ذلك رب الدار التى عرجت عليها حين أحلتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك ما سمعت يا جان فالجان » فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده الى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر فى ذيل الخيبة ، وركب الطريق الأكبر ومضى على وجهه يقتاده القضاء والقدر

ولو أنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه أبصارهم ، وما منهم الا من قاف(٣) أثره بنظرة من الشك ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين الى تلك اللفتة التى تريه النحس على عقبيه ، فواصل السير وقد أنساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكانا يعصمه من القرة(٤) ويذود عنه الطوى ، فما زال يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءا فقصده فاذا هو على باب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوف يمنعه ، حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصربه ربها ، صاح من الطارق ؟ فقال الرجل ، عابر يطلب قوتا وكنا ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القتار فكادت تثب أحشاؤه الى القدر ، فقال له صاحبه : « دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام » . فانتحى ناحيتها وجلس اليها ومد أمامها قدمين أدماهما التعب

---

(١) جبهه بالرد واجهه به . (٢) الحف فى السؤال أى ألح . (٣) قاف بمعنى اقتفى . (٤) القرة البرد

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا اذا امررت عليه النظر امرارا رأيت فيه سهولة السطيع ، واذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين (براسكاس واسكابلون) فرابه أمره حين دنا منه وهو فارس فطلب اليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه أن استحث جواده هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين أولئك القوم الذين كانوا ببـــاب النزل الاول وقوفا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة (الفوتوغرافيا) عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره فى النزل الثانى ، فأومأ الى رب النزل فلما دنا منه همس فى أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم فانفتل اليه ، وقال له : « ما كان أخلقك بالتحول عن هـــذا المكان » فأجابه الرجل : « أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟» قال : « نعم وسنشفعها بأختها » فاستقبل الرجل الباب ولما صار بالطريق اذا هو بصبية يرجونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة ، فخشى أن يصيبه عنت منهم ان هو تغافل عنهم ، فأشار اليهم بعصاه يوهمهم بالاذى ، فنفروا عنه نفور القطا ، فانطلق حتى اذا صار أمام السجن خطر له أن يأوى اليه ليلته وقال لن اجمـــع على نفسى بين الجوع والسهاد ولقد أرانى الى الراحة أجوع منى الى الطعام وهذا جو خليق أن يهلكنى قره ولن أعدم أن اجد فى هذا السجن مكانا يعصمنى منه

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان : « من الطارق ؟ » قال : « غريب لا مندوحة له عن الالتجاء الى السجن » قال : « ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فان

كنت أمسيت وقد اعياك الامر فهذا باب اقتراف الجرائم لايزال مفتوحا وهو لايلبث أن ولجت فيه أن يقتادك الى هنا »
فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ، وتغلغل فى المدينة فمر فى طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفى وسط احداهما دار صغيرة تعلو الارض بطبقة ، باحدى نوافذها سراج يضيء الليل فما هو الا أن رآه حتى أسرع اليه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فاذا رب الدار بين زوجه وولده وهو أهنأ ما يكون بالا، فقال أستضيفهم فلعلى أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر اليهم الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة ، فقالت المرأة لزوجها : « كأنى أسمع نقرا على زجاج النافذة» فتسمعا جميعا فسرى اليهما الصوت فقام الرجل الى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تذعر منه الابالسة ، فقال رب الدار : « من الذى أرى ؟ » قال : « غريب يستضيفك ولك الحكم فى الاجر » ، فقال له وقد دب الشك فيه : « ان كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك أن تغشاها » ، قال : « غشيتها فلم أجد فيها مكانا » فقال له وقد تملكه الشك : « ان ما تقول لشبيه بالباطل وليس هذا بابان المواسم ، وانى لارى رجلا غير ميمون الطلعة ولقد راعنى منك ما يروع المرء من قاتله وكأنى أسمع صوتا يقطر منه الدم وأكبر ظنى انك ذلك الرجل » فقال له : « لا تعجل فى الحكم على ما ليس لك به علم ، فما أنا الا ابن السبيل قطعت فى يومى اثنى عشر فرسخا وقد أجهدنى الكد والنصب بدنى التعب وأخذ منى الطوى ، فهل لك فى أن تسعفني بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فان لم تفعل ، فشربة من الماء ؟ » فقال : « بل شربة من حميم » وأغلق فى وجهه الباب ، فوقف الرجل وقد كاد يأتى عليه اليأس لولا أن بصر فى ضوء الشفق بشيء شبيه بالكوخ فى

وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : «ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتيه فلعلى أجده خاليا فأفنى فيه دولة الظلام واستجن(١) فيه من ذلك البلاء المتساقط » فقصده فاذا هو وجار (٢) لكلب وقد غاب عنه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لايزال على ظهره ولم تقو يده على ازالته لفرط ما ناله من الاين والنصب ، فلبث قطعا من الليل وليس به حراك حتى اذا أمله حمل ما على ظهره عمد الى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وانه ليفعل ذلك اذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق أن يثير غضبه بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو فى ذلك المضيق لايستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو أشد مايكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول الى السجون وعزت عليه حتى مراقد الكلاب

فلما صار فى الطريق قال : « لقد قصدت الفنادق فذادونى عنها ــ فالتجأت الى السجن فكذاك ، فاستضفت الناس فكذاك ، ولقد زهدت فى حتى الكلاب ، فليس لى الا التحول عن هذه المدينة »

ثم سار مقنع الراس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحى متهم الصباح فانطلق حتى اذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فاذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد فى ظلام الليل ما تلبد فى سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الارض . فانقلب الرجل على عقبيه وأم المدينة وكانت ذات سور وأبواب فرأى الابواب وقد أغلقت فحاول التسور فأعياه الامر ، فما زال

---

(١) استجن اى استتر . (٢) الوجار الجحر

يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فيه فانحدر منها الى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الازقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعـــدا من الحجر فسقط عليـــه لا يعى من فرط التعب واضطجع عليـــه . وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجذع : « ماخطبك أيها النائم ؟ » فقال لها : « وهل يدعو ما أنا فيه الى السؤال ألا ترين انى أنام ؟ » فقالت له وقد أخذتها رأفة عليـــه : « أتفترش الصخر ؟ » قال : « مر بى تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الاخشاب ، وأنا الليلة أفترش الصخور ولولا اننى صفر اليدين لاكتريت لى مكانا. على أننى طرقت الأبواب فلم أظفر بكريم » فقالت : « هل أدلك على بيت ما طرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟ » ، وأشارت له الى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته اليه

□

وكان هذا البيت لعابد بمدينة (دينى) وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب بابا قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ ما فيه أن الرجل مسماح كريم عفيف الازار طاهر المهـــد سريرته فى بياض صحيفته فمال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لا عجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الاسنان تعد من العمر ستين عاما

وبينا كان الرجل آخـــذا طريقه الى ذلك البيت كانت كانت الخادم تحدث مولاتها :

« لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد الا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الاندية وولج الاخبية وأجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى

وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلي هذا الليل الا عن حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليـــل فى الازقة والطرقات حتى اذا عن له صيد أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن فى هذا البيت أن يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس فى الامور الى هذا الحد الا لما أمسكه حاكم البلد فى نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة فى صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما القاء تبعة الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وأنا غادية الى السوق لشراء مزلاج(١) لهذا الباب وداعية أحد النجارين لاصلاح عضادته »

وانها لتحدثها كذلك اذ دخل سيدها وقد ألم بطرف من الحديث ، فنظر اليها نظرة المستطلع ، وسألها ســؤال المستخبر : « لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التى توشك أن تحل بنا ؟ » فاندفعت الخادم تحدث مولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست منه ارتياحا الى حديثها تغلغلت فى الاغراق واسترسلت فى المغالاة وقالت : « ولقد عود مولاى طراقه على الدخول فى هذا البيت قبل الاستئــــذان ، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب ! » وما كادت تنتهى من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد : « أتيت أهلا أيها الطارق » فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو الى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب . وأن عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو الا أن تراءى حتى كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة الفم غائبة الرشد .

---

(١) الترباس عند العامة

اما الاخت فقد حفز الخوف احشاءها حفزا فنظرت الى أخيها فاذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا ، فثاب اليها رشدها وعاودها السكون ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، واما ذلك الرجل ، فقد وقف فى صحن الدار وانشأ يقول :

« انني مجرم طويت فى السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهرا حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق على شمس الحرية الا منذ أيام أربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بينى وبينها تلك الورقة الصفراء التى يحملها حديث العهـــد بمغادرة السجون ، فطرقت الابواب فلم اصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيما . فقلت آوى الى السجن ، فأنا أقرب النــاس عهدا به فنهرنى السجان ، فدلفت الى وجار كلب فطاردنى حتى طردنى ، فقلت أنطلق الى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنهــا عافت النظر الى تلك الطلعة المنحوسة . وأشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا الى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الارض ولا فى السماء ، فحالت بينى وبينها الابواب حين بلغتها ، فما زلت أطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه الى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فاذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه ، وانى لكذلك اذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت اليها جملة الحال ، فأرشدتنى الى هذه الدار ، وها أنذا قد بلغتها . ولقد عودنى الشقاء على أن أجتزىء بالشربة واكتفى بالكسرة ، فهل أنا مصيب عندكم ما امسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وأنا راكب هــذين النعلين ، فان فعلتم ــ وما أظنكم تفعلون ــ فلكم ما تشاؤون من الاجر ، فانى على الدفع قدير ! »

فنظر العابد الى الخادم ، وقال لها : « هيئى له مكانا على المائدة» ، ثم أخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن ستشف ما فى قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى أقترب من السراج وضرب بيده الى جيبه فانتزع منه تلك الورقة الصفراء (اجازة الاطلاق) وكأنه لم يصدق أذنه لقرب عهدها بسماع غير الذى سمعت ، فالتفت الى العابد ، وقال له : « دونك الورقة التى ما صحبتنى الى مكان الا سبقنى النحس اليه وانى لأتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة فى مدرسة السجن » . وأخذ يتلوها :

« ان جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعـــد أن لبث فى السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقى جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وانه لفتاك جسور »

ثم قال :

« لذلك ترانى ما حللت فى مكان الا وأنكرنى من فيه وأوجس خيفة منى فياليت شعرى أكذلك تكون معى أم أنت من المحسنين ؟ »

فنظر العبـــد الى الخادم وقال لها : « مهدى له سريرا » وخاطب الرجل قائلا : « نزلت رحبا فاجلس الى هذه النار واصطل وما هى الا لحظة حتى يحضر الطعام فاذا فرغت من تناوله أخذت مضجعك فى ذلك السرير » . فصـــدق الرجل فى هذه المرة أذنيه وأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور الى الهذيان فجعل يقول : « أسرر وحشية وغطاء وما لجنبى عهد بها منذ تسعة عشر حولا ؟ ولقد كان قائما بنفسى أن لا أرى منك غير الذى رأيت من أصحاب الفنادق ، فما بالك تبالغ فى محاسنتى كأنى بعض بنى الانسان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله

لأضاعفن لك الاجر . فيا ترى ما اسم هذا النزل وكم ينبغى أن أدفع ؟ »

فقال العابد : « ان الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ، ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك » فقال الرجل : « لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح اشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فأنت حقيق بمؤاساة البؤساء »

ثم رد الرجل ورقته الصفراء الى جيبه ، وألقى على الارض متاعه وأسند الى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : « ولا أخالك تكلفنى على ذلك أجرا » . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : « لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة الى شىء منها »

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلا : « ولعلك ياسيدى مقرور ، فان ليلتنا باردة الهواء » فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت لها روحه من داخل الجسد ، وأصابت منه تلك اللفظة (سيدى) موقع الماء من ذى الغلة الصادى

ولا يزال المصاب فى شرفه على ظمأ الى نهلة من موارد الاحترام ، حتى اذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل

وانتقل العابد من حديثه الى مخاطبة الخادم فقال : « أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور » . فألمت بقصده وأسرعت الى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة

فقال الرجل للعابد : « لقداكرمتنىالكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساط المساواة ، على أنىلم أكتمك شيئا من أمرى وعندى ان ما فعلت معى لكثير على مثلى » فقال العابد : « لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنا من كان عن اسمه ،

ولكن يسأله عن ألمه وأنت رجل قد أضر بك الالم ونال منك الجوع والظمأ ، فالتجأت الى تلك الدار وليس لى فى ذلك من فضل ، وانما الفضل لله فهيا الى المائدة فقد حضر الطعام »

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس اليه العابد يؤاكله ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف الى النوم فأخذ بيده الى المضجع الذى هيأه له ومر فى طريقه على حجرة العابد ، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ، فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين نم انساناهما عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى الصدور : « وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتنى بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟ » . فأجابه العابد : « ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئا وهذا أمر قد فرغ الله منه ؟ »

ثم غادره وانكفأ الى مخدعه ولم يلتفت اليه . وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه الى البستان وأخذ يطوف فى نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر فى تلك الاشياء المستسرة فى ضمير الدجى

أما الرجل فما صدق أن يتوارى عنه حتى اهوى الى السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى انقلب العابد الى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى هذه الدار عين ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتهل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !

□

وقد آن أن نسطر للقراء تاريخ ذلك الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل فى الارض ببلدة (برى) وكان ابوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس فى معهد الجهل ، فلم يجلس الى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر فدما جهولا . ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكير عن غير حزن ، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على أثرها أبوه .. هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفى المؤونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ فى الثامنة من عمره فلم ير جان فالجان بدا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح فى طلب الرزق وأجره فى أيام موسم حرفته لايزيد على ثمانية عشر صلديا ، فاذا انقضت تلك الأيام انطلق الى جماعة الحاصدين فى المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الايام ويناضل البؤس وهو لا تصل يده الا الى ما تدعو اليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج فى طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل املاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحضره العوز ، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة الاطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى . فكبر الامر على جان فالجان وغادر الدار وخرج هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم فى مخدع له بداخلها ، وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من أثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فاذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه ، وذكر أمر الغلمة فساقه قائد الاضطرار الى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب

الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده الى الخبز . وانه ليحاول اختلاسه اذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا على دوى تلك الصدمة . فتخبل الرجل فى أمره وطرح الخبز واخذ يعدو طلبا للنجاة . وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج فى يده وساعده خدوشا كانت هى الشهود على جريرته ، فسيق الى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد فى الغابات مدمنا لحمل بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم انه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم دينى رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا هذا البائس قسطه من الاذى وزجوا به فى السجن خمس سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتبوت كان جان فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة طويلة الذرع . ساروا به الى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد ولما وصل الى السجن ألبسوه ملابس المجرمين ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح لايدعى بغير نمرة ٢٤٦٠١ .

ولا يعلم الا الله ما الذى حل بعده بتلك الارملة وأولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع وتغلغل فى ظلمات هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه انساه اياهم كر الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير

مرة وقد نقل اليه بعضهم طرفا من خبرها بعد ان لبث فى السجن بضع سنين لايعلم من أمرها شيئا ، نقل اليه انه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس فى دار ولم يبق لها من اولادها غير واحد وقد انقطعت الى العمل فى احدى المطابع فنظرها وهى مبكرة اليها وفى يدها ولدها وقد بلغ الرابع من عمره ، وكانت فى دار المطبعة مدرسة للأطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهى تغدو به كل يوم اليها وتتركه فى فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق لمزاولة العمل فى المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم فى فناء الدار وحيداً فينزوى فى ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضقض من البرد وفى عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه الى كنه حتى يفتح باب المدرسة

هذه هى المرة التى سمع فيها بذكر أخته وآلمته ذكرى تلك الانفس التى كان يحبها ولكنه ما لبث أن عاد الى حاله من النسيان فقد كان فى قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور فى الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب ، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما فى فضاء تلك الحرية الموهومة لايهتدى الى سبيل

ولم يستمرىء ذلك البائس لذة الاطلاق والحرية ، ومتى كان حــرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزعج الضمير ، طاوى الحشا يفرق من الفىء ، ويفزع من لاشىء ، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوة تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساه أن يكون قد مد له من

الشراك ، ويزعجه النهار يغرى به الرقبـاء ويهدى اليه العيون ؟ فهو ما مر بهطير الا وفزع،ولا نبحه كلب الا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فاذا أغفى سلت عليه سيوفها الاحلام ، واذا تيقظ راشت اليه سهامها الاوهام

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل الى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب فى يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام سجنه الى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقا رديما ، وقد كان غادره ولم تبق له فيه الا سنة واحدة وعاد اليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثا

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة اذا عرضت ولا يحجم عن الدور اذا آن ، وهو كلما ظن انه ناج أدركه عثار الجد فرده الى السجن ومد فى أجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولا

وخرج من السجن ، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد ان كان ذلك الرعديد الهلوع ، دخل فيه وهو بادى اليأس جزوع ، وخرج منـه وهو كظيم

□

وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه كان فدما جهولا على أنه ما لبث أن تلقن فى مدرسة الدهر العليا دروسـا ألحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الايام والليالى فعلمه القيد السكون ، وعلمته الاغلال الصبر كيف يكون ، وارشده قرع العصا الى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب

مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان فى نفسه من الجشع

فجلس الى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على نفسه ، وجعل ينظر الى ماضيه نظرة الحكيم العاقل ، الى ضلالة الاحمق الجاهل ، فعلم انه أتى أمرا نكرا ، وان ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال فى نفسه لقد كانت لى مندوحة عن السرقة فلو انى سألت الناس هذا الخبز لما أبوا علي اعطاءه ، ولو أنى أخذت بالأناة فى الأمر لوجــدت لى منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، اما بالسؤال وان كان ذلا ، واما بالعمل وان كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الاخلق بى أن أعتصم بحبل الصبر

فمن النزر أن يموت المرء جوعا على أنه ما خلق الا ليعيش بين السعادة والشقاء ، فان كان نصيبه فى الحياة الالم كان حقيقا باحتماله وان عظم ، فمــا كل ألم يكون للموت رائدا

فلقد عققت نفسى وعققت تلك الارملة وأولادها وحاولت الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، وانى وان زلت بى القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم

ولا أزال أرى انهم نظروا الى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وافرطوا فى العقاب وأخذوا جانب شريعتهم فى القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم فى الرحمة ونظروا فى ميزان حكمهم الى كفة الجزاء ولم ينظروا فى كفة العفو عند التوبة

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها فى مجرى النحوس ، وتلك الانفس التى ألقوا بها فى يد البؤس والشقاء

وانى لا أرى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فانه وان لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والافراط

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشد ، واقد يكون الحنق جنونا

وما ظنك أيها القارىء برجل لم يصب من ذلك المجتمع الانسانى خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان الا ليدنى اليه أذاه ولامسه انسان الا ليمسه منه الضر ، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة

فما زالت تهادى به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن ان الحياة حرب وانه وحده هو المهزوم فيها ، وان ليس ما يعتد به من السـلاح غير ما أمسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمناوأة الايام ومنازلة الانام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ فى الحرص عليه ، وقد رأى ان قوة ذلك السلاح لا تكون الا فى قوة الذكاء ، فعمد الى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلوم بعض الاذهان الىاستنباط وسائل الاذى وطرق الانتقام

وبعد أن فرغ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل الى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم الى فعل الشر وكان بقاؤه فى السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت أثقال الهموم يسمو بنفسه آنا الىالسماء ويهبط بها آنا الى الارض ، فيرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجل خبيثا عند دخوله الى السجن ولكنه أحس بسريان الخبث فى نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية

وهنا يجب أن يقف بنا التأمل برهة ونتساءل : هل يدخل

فى باب الامكان أن يخرج الانسان من طباعه دفعة واحدة ، فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التى جبلت عليها ، فيرد منها الى الخيانة ما فطر منها على الطيبة

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فاذا حق حظ المرء ، واج به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضـــوع الاعضاء فتدعوه الى الانكماش امامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور الى الانحناء ، وهل لايوجد فى نفوس البشر نور ســـماوى لايذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا فى تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه اشعة الهدى

تلك أسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث فى علم الاعضاء عن الاجابة على أخيرها ، فلو انه نظر جان فالجان وهو فى سجن تولون ، وقد وافت ساعة الراحة من عناء الاشغال ، فانتقل من الم الجسم الى الم الفكر لراى رجلا يقطر حزنا ويذوب كمدا ، يزدهيه الصمت ويغوص به الفكر فى بحار من التأمل . انشبت فيه الشرائع اظفار الظلم فجعل ينظر الى العالم بعين الحقد والحرد ، واخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر الى السماء بعين السخط

ورأى مريضا داؤه فى النفس لا فى الجسد ، وقد عز عليه الشفاء . ولوقف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره عن تلك القروح التى تسكن فى هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة

ولراى راى ذلك الفيلسوف (دانتى) فعمد الى محو كلمة الامل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر

وياليت شعرى اكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه الى معرفة كنه ذلك الشقاء الذى أتيح له

ولما حانت ساعة اطلاقه من القيود ورن فى أذنه قولهم له انك حر منذ اليوم ، دبت فى نفسه الحياة وشعر باشعة من الامل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذى سكن فى نفسه منذ تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الألم حين علم ان اطلاقه سيكون مشفوعا بتلك الورقة الصفراء وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه أمله ، وايقن انه لازال فى قيد لا تصل يده الى صدعه ، وان هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب ، فهو فى أسر السجون مثـــله فى تلك الحرية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء

واخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الأجور على عمله فى السجن ، فظن انه اصبح ربا لثلثمائة وثلاثين غرشا ونسى ان ايام العطلة من كل احد وما يلتحق بها من ايام المواسم قد قرضت من رأس ماله ستة وتسعين غرشا فلم يطرح من حسابه ذلك القــدر العظيم ، ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين الم بهذا الخسار وذلك الغبن المبين

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينـــة (كراس)على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر الى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الانجاز فى العمل فعرض على رب المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة

وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهــارة وسأل فى اثناء ذلك عن الأجر الذى

يصيبه العامل فى يومه فقالوا له ثلاثون صلديا ، ولكن رب العمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم انه يحمل تلك الورقة الصفراء

فقال جان فالجان فى نفسه تلك هى الخطوة الاولى فى سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء ، فلعنة الله على كل ذى لون أصفر غير الذهب

فانى وان كنت قد نجوت من السجن فلا اظن نفسى ناجيا من جور ذلك الحكم

هذا ما حل به من الغبن فى مدينة كراس ، ولم ينس القارىء ما اصابه فى مدينة دينى

□

ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش ونعومة الملمس ، وقطع غرارة ذلك السرير الذى لم يكن له به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه الى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده النشاط وكانت عادته أن لا يهجع الا قطعا من الليل فلما تنبه أخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم اهوى رأسه الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد

ومن قضى يومه بين الألم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد ذلك كان النوم الى الحلول بمقلته أسرع منه الى سواه ، ولكنه اذا تيقظ فقلما يجد النوم الى عينه سبيلا

كذلك كان جان فالجان فقد استعصى عليه النوم وادركه الأرق وانتابته الهواجس والافكار وجعل يتنقل به سيال الفكر من مكان الى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها

على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ، فما زال رأسه مسرحا لسوانح الأفكار وميـدانا لسوابق الأوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأوانى الفضية التى لمحها ذلك الشقى على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح الخادم وهى تضعها فى أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره

فسولت له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ماكان يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثنى عنانه عن ركوب طريق العار أبى طمعه الا أن يقف به على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الأوانى فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه فى حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه فى الظلام فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه وهو على هذه الحال فى جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذى كان يجول فى نفسه

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التى نزل الى قاعها غواص الفكر ، للبث كذلك حتى الصباح

فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عنـد النوم والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيأ للعمل وأخذ سمته الى مخدع العابد وعلق أنفاسه وأخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ الباب تسمع فلم يسمع شيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه

هرة تحاول غشيان ذلك المكان فلان له الباب ودار على عقبه بحركة لم يسر الى السمع صوت لها

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها اشد جراة منه فى الاولى فازداد لينا حتى فتح له طريقا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه ، قد دعته الى طلب الزيادة فى انفراجه

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الاقدام فدفع الباب مرة ثالثة اشد من اختها وكان الباب على ظمأ الى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا ، دوى له فى هذه الظلمة صوت جاف فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ فى الصور ، ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحول الى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لايقاظ أهل الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن انه لا محالة هالك : وخال عروقه وهى تنبض فى صفحتيه مطارق تطرق الحديد وأن أنفاسه تصفر تصفير الرياح فى بطون الكهوف والمغاور ، وان ذلك الباب قد زلزل الارض زلزالها فزعزع اركان المنزل وان هذا الصوت النكير قد انذر الناس بالكبسة ، فما هو الا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع فى قبضة العسس فيعيدوه الى سيرته الاولى

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الأنصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسر مما كان فى نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فاذا العابد يغط فى نومه ، واصغى بأذنيه ، فاذا الدار فى سكون الرموس

فخفض من جزعه ودعا اليه الاقدام وخطا خطوة فاذا هو داخل الحجرة فجعل ينقل اقدامه باحتراس كراهة ان يصطدم بشيء من الأثاث . وانه ليختلس الخطى اذ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة

فأنارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم

وكأن الطبيعة لم تزحزح هذا النقاب عن وجه القمر فى تلك الفترة الا لتوضح لعيون الكون عمل ذلك الجانى لعله يذكر او يخشى فلقد كان القمر منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنه فى اللحظة التى اوشك فيها أن يعثر هذا الشقى بأعواد السرير

ومن راى ذلك المضطجع على فراشه ؛ راى رجلا قد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق فى وجهه نور اليقين ويجول فى محياه ماء البشر وترتسم على وجهه آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شفتاه بابتسامة الأمل الفسيح ، ويتأرج من أردانه ريح التوكل

وقد راع هذا الواقف جلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين الاكبار الى ذلك الجسد الذى سكن فيه التقى ، وتلك الروح التى باتت تسنح فى عالم الاسرار وتسبح فى ذلك الملكوت السماوى

وكانت لله مشيئة فى ذلك الراقد ، فقد أفاض عليه من انوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا فى اليقظة والمنام لذلك كان جان فالجان وهو مقيد فى مكانه بقيد من الخشية ينظر اليه وقد تمشت العظة فى نفسه وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالا

ولا يعلم الا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر الى ذلك الراقد الذى تنتشر على وجهه طبقة من النور السماوى تمازجها نفثة من الروح الالهى الذى أنار الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ فى وجهه ، والوجه مرآة الضمير

وزادت بهجة البدر فى بهجة ذلك النائم فكان يراه جان

فالجان فى نور فوق نور ولم يزل واقفا فى مكانه ولم يحول بصره عنه ، وما شك من رآه فى أنه يتردد بين ان يهوى بعصاه الى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوى بفمه الى تلك اليد فيقبلها

كل ذلك والعابد غارق فى نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومىء الى أحدهما بالوقاية والى الثانى بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة الى الاسراع فى العمل

فاندفع يمشى الى الأمام حتى وقف عنـد تلك الأوانى الفضية وهى فى سفطها فتناوله ورجع أدراجه ومر بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى اذ جاوز الباب انحدر الى الحديقة فألقى بالسفط على الارض بعد أن نقل الى خرجه ما كان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد

ولما توفى الليل هب العابد من نومه وخرج يجول فى حديقته وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهى تهرول اليه وتنادى : « أيعلم مولاى تولى الله حراسته أين سفط الأوانى الفضية ؟ »

فأشار العابد اليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال لها : « اليس هو هـذا ؟ » . قالت : « كأنه هو ولـكن أين أوانيه ؟ » . قال : « هذا ما لست أدرى » . فصاحت الخادم : « كان الذى خفت أن يكون فلقد فقدت تلك الأوانى وأكبر ظنى أن ذلك الرجل الذى غشينا بالأمس هو الذى ذهب بها »

ثم طفقت تجرى الى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهى تقول : « نعم ذهب بها فلا بورك له فيها » ، ولاحت منها التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ، فجعلت ترسمها بالنظر حتى انتهت بها الى احدى زواياه

فشاهدت آثار تسلقه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط »

وما زالت تبدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الأوانى ؟ الم تكن هى من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل فى فعلته فان هو الا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها فلا تجزعى فليس فى الأمر ما يدعو الى الجزع وهذه أوانى القصدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها »

ثم غادرها وانكفأ الى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قد اخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فاذا ثلاثتهم من الجند واذا صاحبه بالأمس يكاد يذوب بينهم فرقا

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين الى تلك الأوانى الفضية ، وانت تعلم أنك ربهما منذ الأمس . وما أنساك أن تذكرهما الا شيطان العجلة . فخذهما فلعلك أن تصيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك ! »

ثم التفت الى الجند ، وقال لهم : « لقد آذيتمونى فى ضيفى انه خير مما تظنون »

والتفت بعدها الى صاحبه ، فقال له والبشر يجول فى محياه : « اذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فان لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهذا بابنا لا يغلق فى وجه الطارق ، وما هى الا أن تدفع الباب حتى تكون فى وسط الدار ». ولما تم انصراف

القوم ، قال له : « لقد جعلت لى عهد الله آن تنفق ما اخذت فى رياضـة نفسـك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك » . فلبث الرجل مبهوتا عنـد سماع ذكريات ذلك العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد : « اعلم اننى اشتريت نفسك بعد ان سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها لله فلا تكن عليها من المسرفين »

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشـعر لفرط ما نزل به اكان يقبل او يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب فى قطعة من الارض لا يتعداها

☐

وهكذا قضى سراة يومه فى أودية التيه والضـلال ولم يشعر بألم الجوع وان كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد ينشق غيظا ولا يعلم الا الله على أى شىء قد امسك هـذا الغيظ فى نفسه ولعله سرى اليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه فى حاضره . وكأنه كان يحس برقة قد ادركت فؤاده واخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه كلما شعر بانزعاج تلك الغلظة التى أسكنها فى فؤاده ذلك الظلم الغابر وايدها فيه هذا الجد العاثر . وجعل يتساءل فى كل آن عما عساه ان يحل محلها ويؤثر العودة الى السجون على البقاء على تلك الحال التى لا يعلم مأتاها

كان على عطفى طريقه سياج تطل منها زهور قد أخطأتها أيدى الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الارج الفياح الذى لم يكن له عهد به منذ ابتدأت ايام محنته

وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس

والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء

ولما كان الاصيل وقد رسمت الشمس على سطح الارض ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعا فى جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر براسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى) تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء

وانه يفكر فى أمره وفى تلك الاسمال التى كانت مثار النفور لكل من يراه اذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فاذا هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فاذا هو غلام يعد من العمر اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من الاطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ، ويلاعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته

فانه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها اذ هوت كبراها الى الارض وأخذت تجرى على رأسها الى حيث كان جان فالجان مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العواسج

فما هى الا أن انتهت اليه حتى كان أسرع من السهم فى ممره الى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس ، ويترسم اثرها بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الارض نهبا

ولما علم بمقرها وثب اليه فاذا هو يرى عنده رجلا ، فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش

وكان الطريق اذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا الجو الفسيح الا قطقطة (١) سرب من القطا يسبح فى الجو على قيد مرمى السهم

فوقف الغلام فى وجه الرجل وقد ألقى الشرق(٢) فى شعر راسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع(٣) ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح

---

(١) صوت لطير القطا

(٢) بمعنى الشمس

(٣) بمعنى الدم

الغلمة وسكينة الأبرياء : اين قطعتى ؟ فمد الرجل بصره اليه وقال : « من أنت ؟ » قال : « أنا (فرجى) الصغير »

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذالاول يلحف فى السؤال والثانى يبالغ فى السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى الى ذلك الشيخ واخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية

فزمهر الرجل فى وجهه ، ومد يده ليلتمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ فى القول حتى أحفظ(١) ذلك الشيخ فثار من مكانه واهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : ان لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! »

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى على شىء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس

ولبث الرجل فى مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص فى لجج من الافكار وكأنه كان ينظر الى أصل شجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول ، ولولا قشعريرة سرت الى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد الى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ فى الارض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذى وكأن أجفانه قد شدت الى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هى ترميه بنظرات تخترق أحشاءه

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب اليه السكون فاندفع الى الأمام وانقض عليها انقضاض القضاء

ولما صارت فى يده أخذ يستقرىء بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينه فى أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك

---

(١) اغضب

الحال فى انه ضار من الوحش يلتمس مربضا يستكن فيه على أنه ما كان يرى فى تلك الأنحاء الا ضبابا قد أعاره الشفق لونه الوردى وقد مد الظلام على الأرض رواقا يقصر فيه قاب العين

فشرع فى السرى وقد لبس الدجى وتغلغل فى هذا الفضاء وطفق يهرول فى مشيته وركب تلك الطريق التى نجا منها ذلك الغلام المغبون وما هو الا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتة ورفع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب اليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شيئا فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه ومزق ذلك السكون صوته حتى يأس من لحاقه

ولو كان الغلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن الى اجابته ولضاعف من عدوه وبالغ فى اختفائه طلبا للنجاة من غائلته

وان اليأس لينهب فؤاده نهبا اذ بصر بشبح يخوض فى احشاء هذا الليل البهيم ، فداناه فاذا به رجل يحمل شارة الرهبان وقد امتطى جوادا ، فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر « ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام صغير ؟ » فقال : « كلا » قال الرجل : « انى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى فرجى » قال : « لم أر احدا » فضرب الرجل بيده الى جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : « خذ هاتين وانفقهما فى سبيل الله وفى مواساة ذوى المتربة وانني أدعوك بالله أن تقودنى الى السجن فانا بعض المجرمين » فما كادت تستأذن هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس فى مكانه وهو كأنه بعض الأنصاب . فلم تكن الا لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط فى عقله وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم انه يرى

انسانا جاثما أو واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سبل ثلاث وقد درج القمر من حجر امه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب فى هذا الفضاء وقد انقطع عن اجابتــه كل شيء حتى الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به كلكل الفضاء فسقط على حجر هناك وقال وهو مكب براسه على ركبتيه : « اشهد انى بائس » !

وجال الدمع فى عينين لم يسبح انسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذى صدعته الخطوب

□

خرج هذا الرجل من عند العابد وقـــد علمنا ما كان من أمره وأنه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله

فما وجدت العظات الى قلبـــه ســـبيلا ، ولا كان لتلك الأخلاق الفاضلة سلطان على اخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم الى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التى نفرت من الهدى نفارها من طبائع الأبرار ، وتحصنت فى معقل من الضلال لا تبلغه العظة ، ولا تعمل فيه الزواجر

وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتى أذنيه . فى نفسه منها ما يقع ، فيبالغ فى صدها ، وتبـــالغ فى كيده ، حتى أوشكت أن تأتى عـــلى قوة الشر فيـــه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين

وقد بدأ يشعر فى هذه المرة بأن صفح العابد عن زلتـــه كان طليعة لكتائب المقادير التى خذل امامها عنـــاده ، وأنه ليجنى على نفسه ان هو أبى الا الاصرار على ذلك العنـــاد والحفاظ والتمسيك لذلك الحقد الذى وقره فى صدره على جنس البشر ، وقد وجب عليـــه ان يخرج من تلك الحرب

اما قاهرا أو مقهورا ، تلك الحرب التى قامت بين نفسين اتخذت من تقوى الله جندها ونفس جعلت حزب الشيطان حزبهـا

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الأمر ثار من مكانه واخذ يسرى على ضوء ذلك النور الذى اوشك أن ينير سريرته

ويا ليت شعرى هل كانت تعاوده اذ ذاك ذكرى تلك الليلة التى قضاها فى مدينة (دينى) وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوى الذى بات ينذره بعقباه ويكل له الخيار بين خلتين : أما نزوع عن الغواية فسمو الى مقام الأبرار ، واما استرسال فى الضلالة فهبوط الى قرار الفجار ، ويوضح له سبيل الحياة بين امرين : اما سعادة ذلك العابد ، وأما بؤس خير منه بؤس المصفد فى قاع السجون

وسبيله فى الأولى ان يحلل بحرارة التوبة ما علق باجزاء نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكا نقيا ، وفى الثانية أن يلوثها بحمأة الغى والضلال فيمسى طريدا شقيا

□

وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التى عرضناها على القارىء منذ العهد القريب ولا زلنا نقول أن الخطوب تفتق الأذهان ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم فى فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا

فلقد أحدث فى نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عينا حديثة العهد بحالك الظلام

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة فى أعلى مجاليها وتراءى له آتيها يرفل فى ثياب البهجة والبهاء ، أزعجه ذلك المرأى فلم

يستطع عليه صبرا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس فرد منه الطرف وهو كليل

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الغصوب الذى سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على امره ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء

وانما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته الفطرة الوحشية الى ارتكابها بينما كانت نفسه تسبح فى سماء الحياة الجديدة التى اكبرتها

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها باجزاء نفسه مخالطته للأشرار فى ايام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا

وحين انست عينه بذلك النور وسكنت نفسه الى صحبة التقى وردت الى طبعها رد الحسام الى قرابه علم انه اتى عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزايل اعضاؤه رهبة وتسيل نفسه جزعا

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى نسجته على بصيرته أيدى الخطوب ، وفصلت فى نفسه بين الحق والباطل فعلت بالأول وسفلت بالثانى كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذى يلقى به فى المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر

وقبل أن يلم بما الم به أو يدرك ماتى تلك الحال التى وصل اليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد اليه ما سلبه اياه حتى اذا يئس من لحاقه وقف ينظر الى ماضيه فأنكرت نفسه نفسه

انكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبته منذ عشرين عاما ، وشبه له انه فى عالم الأحلام ، وانه يرى أمامه طيفا يمثل له انسانا قد نحست طلعته ولؤمت غريزته وخبثت طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة

السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم المقوت (جان فالجان)

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الادراك فرسخ فى نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وانه يرى امامه (جان فالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر فى مرآة قد رق ماؤها

وأنه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة اذ لمح ضوءا سرى فى جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الأولى ضوء مصباح ، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل فى صورة البشر حتى كمل انسانا سويا ثم أخذ يدانيه شيئا فشيئا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو الا نور الفضيلة قد تمثل فى صورة ذلك الرجل الكريم

فجعل ينظر بعين بصيرته الى هذين التمثالين القائمين امامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة اخرى

وبدأ يتضاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحى رسمه وبقى العابد وحده فى ذلك الهيكل النورانى

فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة فى عينيه على الخروج

فما زال ينتحب انتحاب الطفل ويبكى بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على اثره تلك الحياة الجديدة التى لم يستمرىء لها لذة قبل اليوم ، وتراءت له صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه ، فجعل يقرأ فيها سطور ماضيه فنظر جريمته الأولى وعلى يمينها التوبة والاستغفار وتمثلت له غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذى أضمره للناس فى يوم تسريحه

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام

كل أولئك كان عليه مسطورا ووجد ما عمل حاضرا ولا يظلم ربك احدا

فسرى وهو ماخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدرى له وجهة حتى اذا افجر(١) وعاد الى رشده راى نفسه راكعا على عتبة ذلك العابد

▭

ذكرنا فى المقــدمة ما كان لفكرة ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا انه بينما نراه يسابح الاجرام فى افلاكها اذ هو يدارج النمال فى مدبهــا

وقد سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره الى يراعه . فانى لأعانى من تعريب ذلك الكتاب ما اعانى،اذا به قد انتقل طفرا من سرد تلك العظات ، الى الخوض فى السياسة

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع الى فلك السياسة دائب الرصد لاجرامه،مسلس العنان لجواديه : فكره،ويراعه

فما كاد يأتى على ذلك الفصـــل السابق حتى تدفق فى سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين بأسماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد . فرأينا أن نغفل ذكرها وأحببنــا أن يكون الكتاب غفلا مــن تلك الأحاديث المبتورة التى لم يكن لهــا اثر فى غير ذهن واضــعها ، وان القارىء ليخرج من قراءتها وما فى يده شىء منها ما لم يكن ملما بحوادث تلك السنة واقفا على تاريخ هذه الأمة ، ومن لنا بمثل ذلك القارىء الخبير

---

(١) افجر الرجل اذا ادركه الفجر

الفصل الثانى

فانتين

ولدت تلك البائسة فى قرية (مونتراى سيرمير)ولا تعرف لها أما ولا أبا ولا من يمت اليهـا بحبل القرابة ، ولا يعرف النـاس من امرها اكثر من ذلك . فوردت سجل العنـاء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج،وانها لتدرج ذات يوم فى الطريق وهى تنتعل أديم الأرض(١) اذ مر بهـا بعض السابلة(٢) وسماها (بفانتين) ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذى أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها

ولما بلغت العـاشرة من عمرها ــ ولا أدرى كيف بلغتها ــ خرجت تطلب وجـوه الرزق وتلتمس اسـباب القوت فى ضواحى تلك القرية

فما زالت تكدح فى طلب العيش حتى يفعت او كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال،وساقها قائد الاضطرار الى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت الى باريس ، والقت نفسها فى معترك تلك الحياة الجديدة ، فما زالت تعمل لبطنها، وهى تطرق ابواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها الى نهلة من موارد الغرام

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت

---

(١) بلا حذاء . (٢) عابر السبيل

ببهجتها عن بهجة الحلل،وامهرها الحسن بما لم تمهر به اترابها امهرها بالنفيسين : العسجد فى شعرها واللؤلؤ فى ثغرها

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فاذا بها ترى فيه وجه ذلك الانسان الذى غلبها على قلبها،فأرضعها أفاويق الآمال، وأرشفها رضاب الأمانى ، حتى اخذت عفتها تتسلل قطرة قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله

وكانت فى مبدأ امرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفاف فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها فى الميل عن ذلك الساحر ، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعا الا لتميل اليه ميلا

كذلك كانت حالها حتى اصبح الحب وقد غلبها على أمرها وسقطت بين ذراعى ذلك الأثيم فافترشها ما شاء

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء اذا لم تحصن نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح(١)

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء

وكان الرجال فى بلاد مختلفة وقد هبطوا باريز فى أيام العطلة السنوية

وما كان ينصرم اجل تلك العطلة حتى انصرم حبل الوداد ، واختفى أولئك الأربعة فى يوم واحد

وانفرط على اثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثانى ، فبقيت فانتين وحدها بلا انيس غير ذلك الجنين الذى كانت تحمله فى احشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت الأحزان ، وجعلت تعانى من الم الفراق ما تعانى

---

(١) حبلى

وزكا حب ذلك الغائب فى فؤادها . وخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتابا تدعوه اليها ، وأبطأ خبره عنهـا ، فشفعت كتابها بثان وعززته بثالث

وما زالت تستكتب النـــاس وترتقب الجواب ، حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط ، فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج(١) أسفا على حالها ، ووضعت حملها فاذا هو طفلة فسمتها (كوزيت)

واقامت ما شاء الله حتى نزلت بها الضائقـة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق

وكانت لهـا فضلة مما كانت تتعجل به فى أيام لهوها ، فما زالت تنفق منهـا وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ، حتى امست وليس فى يدها ما تستعين به على سد حاجتها

وقد زهدتها أيام قرب الحبيب فى مزاولة العمـل الذى كانت تصيب من ورائه الرزق لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة الى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذى ولدته فيهـا الضرورة ووهى العزم وفنى الحزم

واصبحت ترى الأرض فى ناظرها وهى اضيق من كفة الحابل(٢) ، فعزمت على التحول من باريس والعودة الى مسقط رأسها ، وقالت : لعلى أجد هنالك ما أصون به أديم هـذا الوجه من الأخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة

ولمـا صحت عزيمتها على ذلك جمعت اليهـا ما بقى من حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتهـا وخـرجت تمشى على استحياء وهى كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهم غاية

وتنكر لها كل شىء فودت بجدع الأنف لو ان ظهر الأرض من الانس أعرى من سراة الأديم(٣) . فسارت ولو رآها أقرب

---

(١) الودج عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب ، والمراد شدة الندم
(٢) كفة الحابل حبالة الصائد
(٣) سراة الاديم ، ظهر الجلد . والغرض الا يكون فى الارض انسان

الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بهـا من الهزال ، واختـرم جسمها من السقم ، وان كانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر

□

اخذت طريقها الى بلدتها وجعلت كلما أخذ منها التعب تنتحى ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها

ونزل بصدرها نازل من السعال دعتـه الرضـاعة الى النزول بذلك الصدر الضعيف ، فضاعف من وصبها وزاد من المها .. وما زالت ترمى بهـا المرامى حتى وقف بهـا السير على نزل(١) حقير بقرية (منتفرمى) كان قائما على راس طريق يدعى بطريق الخبازين أسس فى صدر القرن الرابع عشر وزالت معالمه اليوم

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الانس يدعى «تيناردیه» وكانت من تحته ذئبة هى أحد الذئاب واضراها تدعى باسمه وهما يقطنان مع أولادهما فى ذلك النزل

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة (واترلو) فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحا كبيرا قد نقشت عليـه هذه الكلمات : « هلموا الى جندى واترلو »

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق فى أثوابه الدم . وهما تحت جو اشبه الأشياء بجو المواقع ، عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات التى كانت تستخدم فى ذلك المهـد لحمل الأثقـال وجلب

---

(١) النزل : الفندق

الأشجار من الغابات . وكأنها لم تطرح فى ذلك المكان الا لتصدأ او لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكسا الصدأ حديدها ، فأقامت فى الطريق وهى كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة فى سبيل الشرائع الغابرة

واتفق أن وقفت (فانتين) على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها ، وقد وضعتهما فى الأرجوحة ، وهما كأنهما قمران فى طفاوة(١) أو زهرتان فى كمام

وكانتا متعانقتين فى هزة ذلك المهاد ، وصغراهما بين ذراعى كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرا ، واوشكت الصغرى أن تهل العشرين

وجلست امامهما على كثب منهما تشارفهما وتتغنى بشىء من الكلام المقفى . وانها لتشدو كذلك اذ وقفت فانتين على راسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ » . فلم تحر جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جواب الطرب فى ميدان الغناء . فعاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقا بالوصول الى مسمع تلك المندفعة فى غنائها . فالتفتت اليها ، فاذا هى ترى فتاة قد انصب بدنها السير وكدها الهم والضير ، ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال . فانتقلت حمرة وجنتيها الى عينيها ، وهاجر سواد لحظها الى حظها ، وامتد اصفرار شعرها الى لونها ، ودب سقم جفنها الى صدرها ، وسرى نحول خصرها الى جسمها ، والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال

---

(١) الطفاوة دارة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهى غطاء الزهرة

وقـد أدمى ادمان وخز الأبر سبابتها أيام كانت تخيط لتعيش ، وذهب الفقر بزينتها ، فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر

▭

تلك فانتين التى كانت تقف على جمالها العيون ، ولو أنها تبتسم اليوم ، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم فى ثغرها ، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلا الى ذلك الثغر الذى كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التى أودعتها كل ما تملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساذجة الطرف عبلة(١) الساق وضاءة الجبين . لها من صدر أمها مهاد ، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان

فقالت لها ربة النزل وقد رفقت فى القول : « نعم همـا ريحانتاى » ثم دعتها الى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ، وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنها فى القول وتلين لها فى الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شأنها ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا الى تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صغارها

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق الطويلة ودون البادنة يزدهيها شىء من الخلاعة ، ويشوب لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق ، ولا أحسبها فى ذلك العهد الا وقد جاوزت حد الثلاثين

ولو أنهـا انتصبت قائمة لراع (فانتين) طول قامتهـا ولذهب بارتياحها وسكونها الى محادثتها ، ولا بدع فانهـا

---

(١) عبلة الساق مفتولتها

لم تكن الا حرث جندى وفراش وحشى(١)

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض اليها جملة حالها ، غير أنها كتمتها أمرها ، وألقت فى روعها أنها أرمل قد مات عنها بعلها . وأن الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها فى باريز فغادرتها وخرجت تضرب الأرض رجاء أن تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وانها قضت عامة يومها وهى تعانى تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها اليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور فى هذا الفضاء بعينين قد جال فى انسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة الا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها فى هذه الفترة أنها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى

وما هى الا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعةبتلك الارادة التى لا يقف فى سبيلها شىء عند أولئك الأطفال ، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا . ولما صارت على الأرض أخذت تدب حتى انتهت حيث الارجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى ، وقامت الأم الى بنتيها فأنزلتهما الى الأرض ، وقالت لثلاثتهن هيا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتلاف فطفقن يمرحن ويلعبن وينكتن فى الأرض نكتا

وكانت تلك القادمة الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يدا فى حفر تلك النكت

---

(١) اى كانت زوجة جندى او زوجة رجل متوحش

وجلست ربة النزل الى فانتين تحادثهـا وتحاسـنها وما زالت بها حتى خلبتها ، وانست منها الارتياح الى سماع حديثها ، فأقبلت عليهـا بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهى تخبرها

وبينما تتحادث الأمان فى ناحيـة ، وتلعب الصـغار فى ناحية أخرى برزت احدى بنات الأرض منخدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت ، فراع الصـفار منظر تلك الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا واشفقن منها وقـد ضمهن الخوف الى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن واستولى عليهن الدهش جميعا

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل ، فقالت: « لفانتين وهى تحدثها الا تنظرين الى هؤليـات الأخوات الثلاث ؟ »

فوصلت تلك الكلمةالى فؤاد فانتينقبلسمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسى منذ رايتك ، فانى قد عولت على مغادرة ابنتى بهذا النزل . أفلا تكفلينها ؟ »

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، واشـارت برأسها اشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول

فقالت فانتين : « ولا احسبك الا ستعجبين من امرى ، ولكن الحاجة تدعونى الى ذلك ، فقد استحال علي أن أجمع بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية الى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى امهـا الجديدة وباعثة لك فى كل شـهر بما يقوم بنفقتها ، وآخذة على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كلشهر لكفالتها فانظرى ماذا تأمرين »

وما هى الا أن انتهت مـن ذلك الحديث حتى سمعت فى صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا

يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت الى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « انه صوت زوجى وهو رب النزل وصاحب الأمر والنهى فيه ، فلا تجعلى له سبيلا الى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المؤونة »

وقال الذى هى فى داره : « لن نقبل الكفالة،او تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر »،ثم لبث غير بعيد وخرج اليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور . وسارت ومدامعها تسابق خطواتها

□

وما كادت تغادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على أثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة الى القلوب سبيلا

وقالت المرأة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل ؟ وانى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون،فان رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! »

فقال الرجل : « ومن الرأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فان غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء »

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء

فلبست ثياب الذل ، وطرحت رداء الدل،وكانت كلما شبت يوما شب معها البؤس عاما ، حتى اصبح الثرى مهادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذراعها خشونة الجماد

أين عين فانتين ترى ذلك الطمر(١) الذى تضل الأبر سبيلها فى شقوقه ، وينتهى العد دون خروقه ، تضحى(٢) فيه وتخصر(٣) وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب الى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ، الى حمل الماء ، تنطلق الى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة وهى ثقيلة ؟

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهر وفوق الكلب (والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل ما أصاب)

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون أنفاسها . فاذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا الهواء » ويرقبون حركاتها ، فاذا تحركت قالوا لها : « لقد كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل رسمها

ولؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الاجر لتلك النفقة الفادحة

وكأن الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامرأته ذات يوم : « انى لأعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، ان هى الا بغى قد غلبت علىأمرها،وما جاءتها تلك الطفلة الا منطريق السفاح .

---

(١) الثوب البالى (٢) يصيبها حر الضحى (٣) يصيبها البرد

ولا ارى شيئا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة في النفقة لعلنا نصيب من وراء ذلك ما نوفي به الديون، واني ليعرض لي أن فانتين لا ترى بدا من الاجابة رجاء أن يختفي أمرها ولا أحسبها الا ستخضع خضوع المضطر . ! »

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء ، وكلها في طلب الزيادة في النفقة ووصف ذلك النعيم التي ترتع فيه طفلتها ، وكانوا كلما أفرطوا عليها في العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتها وكل ما تصل يدها اليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون واصبحوا ببركة وجود (كوزيت) وكدح تلك الأرملة وهم في سعة من الحال وبشاشة من العيش

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلا للسعادة فان النزل قبل حلول (كوزيت) لم يكن شيئا مذكورا فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعاني من الم الشقاء ما تعاني وهم يمرحون من وراء عذابها في بحبوحة النعيم

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لأنكرت رؤيتها ، ولغابت عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء

وكانوا يتحدثون في تلك القرية بأمرها فيقولون أن أصحاب النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون طفلة لقيطة ويربونها احتسابا ، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريق قريتها التي ولدت فيها حتى اذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فاذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ،

وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ، وهي أشبه شيء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منذ اثنتي عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها : «لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائي . فاني ما كنت أهبط دركا في مهاوي الشقاء حتى كان يعلو درجة في مراقي الهناء »

ولقد صدقت فانتين في حديثها لنفسها فان هذا البلد قد أدر الله لأهله اخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة بدخول رجل هبطه عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحت جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره

وشبت نار في احدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهب الناس لاطفائها . فاندس الرجل في غمارهم وغامر بنفسه في النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأوا أذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه عن أجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك في أمره وان كان غريبا

وبقي مادلين (١) وكذلك سمي نفسه ــ في تلك القرية واتخذها وطنا له ، ولا يعلم أهلها من أمره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قد وقف على أبواب الخمسين من عمره وأصبح كثير الاطراق كلفا بالعزلة ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل في مصنع للتجارة كان قائما هناك واحسبه دخل فيه أجيرا ، فأقبلت دنياه ــ وناهيك اذا أقبلت ــ حتى أصبحت فضته ذهبا وأمسى تراب عمله تبرا

ولم تكن الا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك المصنع . فأثرى الرجل اثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع

---

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية

تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات اخرى، وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الأثاث ، وكان لا يدخل فى عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى اصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقـدرون ما أودع فى خزائن المصارف بخمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية

وما آلت اليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها فى صـالح الأعمال ومواساة البؤساء . وشاد فى القرية مدرسة للذكور واخرى للأناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع فى نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا .. فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت اذا غشيت دارا رأيت من بها فى هناء ، واذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها فى رخاء

كل ذلك كان بفضل الانكماش فى الأعمال ، وبركة الكسب من الحلال

وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذى ترى الا بطرح الأثرة ومصارعة الجشع ...

ولقد بلغ به من حب الخير أن أقام ملجأ للعجزة وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتـاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم لمثله) . وجعل فى مصنعه خزينة لمساعدة عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة

ولم يزل نجمه فى سعود ، وهمته فى صعود ، حتى نبه ذكره ، وعم خيره ونمى خبره الى بيت الملك

فارتاح الملك الى سماع ما أنهوه اليه من أمره ، ورأى ان يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر باقامته شيخا على ذلك البلد

ولما بلغته ارادة الملك بالغ فى الضراعة بالتماس الاقالة ، حتى أقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من أخـذها عليـه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم انه النزق ، وقال آخرون انها القناعة

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدد الملك ارادته باقامة « مادلين » شيخا لبلده ، وجدد مادلين طلب الاعفاء . !

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره، حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشي اليه الكبير والصغير بالرجاء الى الخضوع لتلك الارادة ، فأكره على ذلك المنصب اكراها

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ، ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع فى أول أمره الأموال انه تاجر يطلب الاثراء

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه أن به لجشعا ، وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور انه افقى لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا انه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى

ولبث « مادلين » فى يومه مثله فى أمسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ، فبقى على عهدنا به من مداومة الاطراق ، وحب العزلة عن النـاس

فاذا رأيته رأيت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد لوحته الشمس ، وجال فى عينيه الوقار ، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة

وكان يجلس للنظر فى أمور الناس ، فاذا فرغ من ذلك انكفأ الى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب . وقد رأى أن يعوض ما فاته من تحصيل

العلوم فى أيام صباه ، فعكف على الدرس فى أيام شيخوخته وان كان الفقر قد منعه فى أوليات عمره من مزاولة التعلم ، فقد ساعده الغنى فى أخرياته على تناوله ، ورأى من الكتب صـــدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن الى صحبتها وارتاح الى عشرتهـــا

وكان ينطلق اذا شمر النهار الى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قـــد اتقى الله فى استعمالها ، فما هاج بها غرابا ساقطا ولا غال طائرا لاقطا . ولكنه كان يحملها لرد الغوائل، فيصحبها فى وقت أمنه لتؤمنه فى وقت خوفه

وكان مع ذلك ماهرا فى التسديد ، حاذقا فى التصويب يصوب على الشىء ويرمى ، فيضع الرمية من الهدف حيث يشـــاء

وهو فتى القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله، ويمسك بذنب الفرس ، ويخلد به الى الأرض فيتحلحل اذا كان قويا ، ويقعى اذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهـــائج فيأخذه بقرنيه

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه ، فما مرت به جنازة الا وكان أول المشيعين لها ، ولا امتحن انسان بمكروه الا وكان أول المعزين له . وتراه عند انطلاقه الى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح نوحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكأن نفسه تسبح فى غير هـــذا العالم وعينـــه تشخص لغير ما يدركه الحس ، وكأن أسلاكا من الالهام الالهى قد امتدت بين أذنيه وبين أسرار ذلك الأبد ، فجعل يلقى بسمعه الى تلك الأصوات التى باتت تشدو بحزن على حفافى هاوية الفناء

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة أن يرى ، كأنه يرتكب اثما أو يعالج اختلاس شىء

ويعود رب الدار ، فيرى فيها اثر (مادلين) فيظن اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال داره ، فلا يزال يتفقد حاله حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد أرادوا سلب نعمتي ولكن أبى الله ألا أن اسلبهم مالهم ، وما ذاك الا لأمر نزل بهم فأذهلهم عنه

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقير مؤونة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف . .ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التى كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين . فهو كما يصفونه غنى لم يخرج به الغنى عن حد التواضع ، وسعيد لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح

□

وفى أوائل سنة ١٨٢١ اجاب عابد (دينى) دعوة ربه وقد نيف على الثمانين من عمره ، فنعتـه الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع فى مسامع مادلين ، فوجد عليه وجدا شديدا وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن نبأه ومشى بعضهم الى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا فى ليل من الشك فى أمر هذا الرجل ، حتى اضاء لنا حسبه الوضاح ، فما هو الا من تلك الأسرة الشريفة ، ولا ريب أن نسبه يتصل بذلك العابد التقى

وأقاموا على ذلك اليقين أياما حتى تعرض له بعضهم بالسؤال فقال وقد اخذ عليه طريقه : « انى اراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعى عابد مدينة (دينى) فهل أنت ممن يمت اليه بحبل القرابة ؟ »

فقال (مادلين) وقد كان ينطق الحزن فى أحشائه : « كلا ، وانما كنت فى أول أمرى خادما عنده ! »

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع

سنين لا يجد ألما لفقدان نور البصر وقد بقى له نور البصيرة وبقيت اخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته ، ولا تنفك عن ملازمتــه . فهى لا تريم عن مخدعه ، الا لامضــاء أمره أو قضاء حاجته . وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه ، حتى رأى أنه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذى بات لا يغفل عن رعايته

ولبث ذلك البصير أميرا لدولة القلوب ، وكان يقول فى نفسه : لو تم الكمال لشىء فى هذه الحياة الدنيــا ، لأوشك امرى أن يتم كماله ، فانى أرانى لا ينقصنى شىء من السعادة

اللهم انك ان كنت قد استرجعت منى هبة النظر ، فقد جعلت أفئدة من الناس تأوى الى

اللهم ان من آوت اليه الأفئدة ، كان خليقــا أن يصبح حامدا ويمسى مشكورا

وكذلك كان أمره فى أواخر أيامه ، وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه ، وان لم ترها عينــه ، وتتحسس روحــه روحها فى ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بهـا فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء

نعم كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه الى نعيم أخراه ، وبلغ خبر منماه (مادلين) كما ذكرنا فوجد عليــه موجدته ، وأقام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد

□

وما زال الزمن يحلل من حقد مبغضيه ويستل الوساوس من صدورهم ، حتى أصبح وليس فى القرية من يرتاب فى أمره ، فسكنت اليه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الأمل ، ومهبط الثقة ينتجعه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد اليه المتخاصمان من الأطراف للمقضاة فيصل بين المتقاطعين ،

ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طبع فى نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه

عطفت عليه القلوب الصوادف الا قلبا واحدا كان يبالغ فى الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس فى الميل اليه

وكان هذا القلب فى صدر رجل من كبار الشرطةقد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشـــهد (مادلين) وهو فى مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر فى الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به أحس بدبيب الكراهة فى نفسه بصورة قد أعجزه ادراك مأتاها

ولا عجب فان لبعض النفوس اشرافا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقى ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى

وهو كذلك الشعور الذى يقع أحيـانا فى نفوس البشر فيحدث فيهـا عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الأولى ، ويقف فيهـا موقف المسـتبد لا يخضع لسلطان العقل ، ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها ويباين بين طبائعها ويوحى اليها عند اللقاء ، فترى النفس التى ركبت فيهـا طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر

أقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحـدة منهـا ممسكة بذراع أختهـا من نفوس تلك العجماوات

ولعلمت أن لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ويكيف أطواره ولأدركت أن هذه الوحوش وتلك الأطيار لم تكن الا تماثيل أعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهى وان لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس الهـاما من الخالق الذى جعلها لها تذكرة واعتبارا

أما الآن وقد سلمت معنا أيهـا القارىء ان لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا أن نمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطي وأعني به (جافير)

زعم بعضهم أن الكلب اذا وقع على الذئبة أولدها جروا وان الذئبة تخشى ان هى انتظرته حتى يشب أن يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير .. فلو أننا جئنا بذلك الجرو ، وأسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيـه القارىء شخص (جافير)

ذلك هو الرجل الذى ما فتىء يتعقب (مادلين) ويسير على أثره مسير القضـاء فى حجب الغيب ، فهو اذا لمحه ماشيا كاد بصره ينهب مواقع أقدامه ، واذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه ، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه : ترى أين نظرت هذا الرجل ؟.. جعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شيء درج فى أثناء النسـيان ، وينتهى بقوله : لن يغلبنى هـذا الرجـل على أمرى وان بالغ فى اخفاء أمره ..

وكان (جافير) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة ، والشرطة كمـا تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة، وتهب من اردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت امه سجينة ، وهى من هؤلياء النسـوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ مـن أوراق اللعب ، وكان أبوه سجينا بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء ، ولمـا بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الانسانى سدا قد استحال عليه أن يجاوزه . وعلم أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد الا أحـد رجلين : رجل ناصـبه العـداوة فعمل على كيده ، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته

وقد وجب أن يكون جافير أحد هذين الرجلين فشمست

نفسه عن الأول ، وسكنت الى الثـانى . فانتظم فى سلك رجال الشرطة وأخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى عهد اليه بأمر التفتيش ، وأصبح كبيرا لفرقة من الجواسيس

وكان يمقت الأشرار مقتا شديدا ويتفانى فى الايقاع بهم ، وان كان هو من سلالتهم

وقبل أن يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل فقد رأينا أن نصور للقارىء خلقه فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصـة به ، وكانت له لحية قد أغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب عاليها وأجدب سافلها واستهلت ذراها عند العارضين ، واكتثت أصولها عند العنفقة(١) وكان أفطس الأنف غائر المنخارين يخال الناظر الى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين ، وكان اذا تبسم وقل أن يقع منه ذلك أراك ثغره أصول أنيابه ، فهو اذا ضحك فنمر ، واذا غت(٢) من ضحكة فمقور اتخذت العبوسة مسكنا لها بين عينيه ، وأطلت النفرة من محاجره، وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه

□

ذاك خلق الرجل نصوره للقارىء واما خلقه فقد كان قائما على خلتين كريمتين ، احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها

غير أن المغالاة فيهما قد خرجت به عن حد الاعتدال فأنكر الناس منه ذلك

فكان يرى أن كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل

---

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن

(٢) غت الضحك أخفاه

فى باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل فى الثقة بكل عامل فى الحكومة وزيرا كان أو حاجبا

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة ، وهو لم يقع منه ذلك الأمر فى حياته

ويقول وهو يعتقد ما يقول أن القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون ، وأن رجال الحكومة لهم اشراف على الأمور فهم لا يخدعون . ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة ، وأن المرء اذا أجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الانابة ولا يلوى بجريمته العقاب

كذلك كان يبالغ فى الخلتين ولا يستثنى أحدا فى الحالتين

وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالى النفس مهيب فى العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله ويراقب الله فى ذلك العمل ، ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه ، فهو فى حرفته كالراهب فى عبادته

والويل ثم الويل لمن وقع فى مخالبه ولو كان من ذوى قرابته ، فانه ليرد أباه الى السجن اذا قبض عليه وهو فار ، وليعارض فى رجوع أمه الى بلدها الا بعد انقضاء سجنها

وانه ليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسا وأهدأ ما يكون ضميرا ظنا منهانه انما يرضىبذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه انسان مرة متراوضا ، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم ، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء

وكنت اذا رأيته فى حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عيناه تحت حاجبيه ، واختفت يداه تحت كميه ، وانزولت عصاه تحت ردائه ، حتى اذا عن له صيد أو سنحت له فرصة انتفض فظهر لك

ما اختفى من أمره كأنما خــرج من كمين أو وثب من ظلمة الى نور

قلنا انه لا عيب فى ذلك الرجل غير تلك المغــالاة ، فهو يغالي حتى فى معاملته لنفسه . اللهم الا ساعات معدودة من أيام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفســه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة

وآية رضاه عنها أن يعمد الى لفيفة من الطباق(١) فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله

ذلكم (جافير) ومن ذا الذى ينكر خطر (جافير) ؟؟ هو حــرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، اذا لفظ اسمه امام أشد العتــاة انقلب على عقبيه مذعورا ، واذا لاح شبحه أمام احد الفارين تقيد فى مكانه بقيد من الرهبــة

فويل لك يا (مدلين) من هذه العين التى ترسم أثرك ، وتلك الاذن التى تتسقط خبرك ، ولا أحسبك الا واجدا فى نفسك ما يجده لك ذلك الرجل فى نفسه

فأنت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه ، وان كنت قــد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت السكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء أبطله عليــه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام ، وكاد يأكل مقراض اليأس خيــوط آماله ، وأوشــك أن يعتقد بحلول الفشل فى مساعيه واعماله

واتفق ذات يوم أن خرج احد سائقى العجلات ومعه عجلة

---

(١) المعروف الآن بالدخان أو التنباك

يجرها جواد . فانطلق بها فى طريق كثير الوحل ، ففارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه ، وسقطت فوقه العجلة ، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد وهو مشفق أن يبتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون اليه ، ولا يقدم احد على الأخذ بيده

واقبل (مادلين) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ فى الطين شيئا فشيئا ، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده فى الطين حيا ، فأشار اليه مادلين بالسكون ثم التفت الى الجماعة وقال : أيكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت، تلك العجلة فيرفعها بظهره واجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ فوجم القوم جميعا ؛ فقال مادلين : انى أرى الوقت ضيقا وارى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبا وان ابى الا المزيد فعشرون

وما كاد يأتى على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلا يقول : « ان القوم لا تنقصهم الارادةولكن تنقصهم القوة ! »

فالتفت مادلين ليرى القائل فاذا به جافير ، ولم يكن لمحه عند قدومه

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ انه ليس على ظهر الارض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة ، اللهم الا اذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرا من حياتهم فى سجن تولون ! »

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك الا تعريضا وتقريعا له ، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها . ثم التفت الى الجماعة ليرى ايهم أقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ؛ ولم تكن الا جولة فكر ، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين

ركبتيه ليعتمد عليها فى رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب الجماعة اشفاقا عليه ، وظنوا أنه لا محالة هالك ، فصاحوا به : أولى الك أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير ، وانا نناشدك الله أن تستبقى حياتك

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت : انى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك،فانى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته

وان القوم ليحفز اليأس أحشاءهم واذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط ، وسمعوا صوتا قد صحله(١) التعب يدعوهم الى نجدته ويقول لهم : أعينونى بقوة فقد أمكننى الله منها

وكان ذلك صوت مادلين فأوفض(٢) القوم اليها ، وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر . وكان هذا السائق يدعى (فوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فأثرى ثمأملق حتى صار من سائقى العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد(٣) من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار اليه أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : لقد قدم مادلين وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد

---

(١) بح بتشديد الحاء من التعب
(٢) أسرع القوم
(٣) الحرد بفتح الحاء وكسر الراء المغيظ

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له

ولما سار مادلين من تحت المجلة بعد انزلاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل (فوشلفان) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبته يقبلها وجعل يدعو له

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون الى ذلك الوجه الذى بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح ، وجافير يكاد ينشق غيظا فى مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة أمر « مادلين » بفوشلفان فحمل الى مصنعه وأفرد له فيه مكانا ووكل به اثنتين من الممرضات ، وأوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفى النهار حتى أبل من مرضه

ثم وجه اليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال (وان كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم)

ولما أبل فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم باحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع الى حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء بباريس

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة الى مادلين براءة وظيفته . وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التى تأذن له بالتصرف المطلق فى شؤون وظيفته ، كادت تطير شظايا نفسه حسدا

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذى يقع فى نفس الكلب اذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل يتحامى طريقه ولا يلقاه الا مكرها على لقائه

فكان اذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين ، واذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين

هذا ما كان من امر جافير ومادلين . ولقد طال عليك ايها القارىء انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف امام تلك القرية

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من امرها ، فوقفت تنظر اليها ، وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هي ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها على رب المصنع ، فأمر بضمها الى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان أجرها في اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال مناها وأمست تعيش من كسب يدها . ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت في العمل حتى برعت فيه ، وزادوا لها في الأجر ، فأمكنها أن تكترى لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح الى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغرها ، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير في طفلتها وفيما سيكون امرها في مستقبل ايامها

وكانت تحرص كل الحرص على ارسال النفقة في حينها وتبالغ في كتمان أمرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير الى ذكر « كوزيت » أو محل وجودها أو أن تخوض في حديث يجر الى ذكر الزواج ، ولكن أبى النحس الا أن يلازم طالعها فانها كانت كلما ارادت ارسال النفقة الى طفلتها في كل شهر استدعت أحد الكتاب ، فاستكتبته كتابا الى أصحاب النزل ، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه

عنـد قدوم الليل والليل أكتم للسر ، فولد ذلك فى نفوس صواحبهـا بالمصنع بعض الشـكوك ، ولفت أنظارهن الى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتى الا اذا اتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوى فى طريقها عن الناس وتتحامى فى المصنع الاختلاط بنا

ولا تعجب أيها القارىء فان أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجلبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبـة فى الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالىء كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنـه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته فى تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر ويرصـد نفسـه لاستطلاع السر ، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التى هى دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بانفـاق بعضه فى سـبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل فى زوايا الطرقات لا يبالى بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا فى الاستطلاع ورغبة فى الاكتشـاف ، حتى اذا الم ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس الى أصـحابه فى الأندية يحـدثهم وهو يميل بسفالته تيها ، ويثنى عطفه كبرا كأنه قـد اهتدى بأبحاثه تلك الى اكتشـاف سر من أسرار الكون

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسـوة اللائى يعملن بذلك المصنع فانهن قد أفرطن فى مراقبتها فعددن انفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون فى أمرها . لمحنها مرة وقد وقف الدمع فى عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه فى خفيـة فتغامزن عليها بالعيـون وأصـبح الشك عنـدهن يقينـا ولم يكن علم الله بكاؤها

الا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذى غلبها علـى أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتـــدين الى معرفة العنوان الذى تكتب به ، واجتمعن بذلك الكاتب الذى كانت تستخدمه فى الكتابة ، فانطلقن به الى احدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما فى فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وأنها غادرتها بنزل فى قرية (منتفرمى) وما يكتفين بما وصل اليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الاسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك فى دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملا الى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها

تلك (ما دام فيكتريان) التى كانت رسولهن الى قرية « منتفرمى » وهي التى قالت لهن عند عودتها : لقد أزلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وانفقت على ذلك مئة وأربعين قرشا

□

واستغرقت تلك المؤامرة زمنـــا طويلا حتى اســتوفت « فانتين » عمر العــام وهى بذلك المصنع . وفى ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتى قرش ، وقالت لها ان رب المصنع يأمرك بالتحول عن هــذا المكان وان أحسنت الى نفسك فلا تسكنى القرية بعد اليوم

فجمدت « فانتين » فى مكانها وحاولت الكلام فخانهــا الصوت ونظرت الى وجه التى تحدثها فلم تلمح فيــه للعطف مجالا فخرجت تمشى على استحياء وهى أسوأ ما تكون حالا ،

وكان ذلك فى الشهر الذى لؤم فيه صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة منها فانكفأت الى حجرتها وجلست تفكر فيما سيؤول اليه أمرها ، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ « مادلين » لتنفض اليه جملة حالها لعلها أن تصيب منه قلبا رحيما ، فمنعها الحياء من ذلك ، وقالت فى نفسها لقد أمر بابعادى لأنه عادل وجاد على بمائتى قرش لأنه كريم، وما عسى أن يفعل الرجل معى أكثر من ذلك وقد وقع فى نفسه ما أنهى اليه من أمرى ؟

وكان « مادلين » بريئا من ذنبها ولم يكن من عادته الدخول الى دار الاجيرات فلم يشرف على أعمالهن ، وقد عهد بذلك الى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة فأقامها رقيبة على الأجيرات ومنحها التصرف المطلق فى أمورهن . وكانت تلك المرأة بمنزلة من الأمانة والرفق فى العمل واسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة التى اذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهى التى باشرت التحقيق فى أمر « فانتين » وهى التى حكمت عليها وقامت بامضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه

كل ذلك يجرى بالمصنع فى قسم النساء ومادلين لا يعلم منه شيئا ، ولا عجب فان أمثال هذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر فى شؤونهم الي من يرون فيه الاخلاص ولا يحاسبونه يوما ما يأتيه من ذلك العمل

□

ولما غادرت فانتين المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بدا من البقاء فى القرية لأنها قد ابتاعت أثاث منزلها بالقرض والنسيئة ، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء

العاقبة ان هى غادرت القرية قبل وفاء دينه ، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذى استأجرت فيه قاعتها . على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما فى المقاضاة فيما تبقى عليها وردت الى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدا من حفظه وعولت على العمل ، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن تكون خادما بأحدها ، فلم يكن نصيبها غير الرد والاعراض ، فعادت الى منزلها تتعثر فى ذيول الخيبة ، وما زالت تطالب فكرتها فى استنباط عمل تعيش من ورائه ، حتى فتق لها الذهن أن تعاود حرفة الخياطة ، فكانت تخيط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب فى يومها اثنى عشر صلديا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين فى احراز مسكة الحوباء(١)

وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء ، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس اليها فى كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش فى الخلة(٢) والضيق

وليعلم القارىء أن وراء العيش القليل منزلة أخرى ، وهى العيش من لا شىء وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب فى الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدانق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجا متنوعة

ولقد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة فى فن الحياة فاستغنت عن النار فى الشتاء وعن اللحوم فى الطعام

وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها ، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذى ينفذ من طاق جارها

---

(١) الحوباء النفس

(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة

وكانت تقول لجارتها وهى تحدثها : « انى لأقضى عامة النهار وثلثى الليل وأنا أخيط ، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير ، وانى بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر

ومن كان حاله كحالى من الهم ، كان خليقا أن لا يتناول غير القليل من الزاد ، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأتأدم بهذا الهم الكثير ، وأجد منهما غذاء أمسك به النفس ، وأحفظ به الحيـاة » !

وفى تلك الضائقـة التى يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها،فتجد لذلك سرورا لا يعادله عندها شيء فيدعوها الشوق اليهـا الى طلب استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : «اى ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هذا البؤس ، وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤسا فمن أين لى نفقة الطريق ووفاء ما عـلى من الديون لأصحاب النزل حتى استخلصها من أيديهم ؟ ان هذا الأمل بعيد »

وكانت تلك المرأة التى علمتها دروس الحيـاة مـن ذوات النفوس العالية ، وأهل العفة والقناعة تسدى المعرفة الى الفقير والغنى ، وتفعل الخير لأجل الخير ، ولا تعلم من الكتابة غير رسم امضائها وتقول أن الله موجود ولا تعرف غير ذلك

وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر الى الحضيض ستعلو بهم ذات يوم الى عنـان السماء ، فان لكل يوم غدا

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس اليها ، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج ، فلزمت بيتها زمنا طويلا ، وكانت اذا دعتهـا الحاجة للخروج لابتياع شيء أو قضاء أمر مشت فى الطريق وهى كاسفة البال تود لو ساخت بهـا الأرض لتختفى عن أنظار المارة ،وكانت تشـعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع أقدامهـا ويشيرون بالأصابع الى رث ثيابهـا ، فتغض من

نظرها ، وتحتث قدميها للهروب من تلك النظرات التى اخترقت اهابها وأدمت فؤادها . ولو كانت تلك البائسة بباريس لما لفتت اليها نظرا ولا استوقفت ناظرا .ولأرخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون ، ولكن فى أمثال تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة الناس

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهى تروض نفسها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشعور من نفسها ، وصارت تمشى فى الطريق وهى طارحة رداء الخجل لا تبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات ، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة ، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الأنف عالية الرأس

وكانت كلما لمحتها مدام (فيكتريان) حاسبها الله وهى تمرح فى قد(١) تلك الخلة والضيق ، وتمشى هذه المشية فى الطريق ، حمدت مغبة عملها وأثنت على نفسها اذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل سعايتها الى ذلك الشقاء ، ومن الناس من لا يجد سروره الا فى ألم غيره

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الأذى

☐

قلنا أن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثى الليل وهى عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الافراط من عزمها وزاد فى ذلك السعال الذى كان جالسا فى صدرها فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر

ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط

(١) القد هو القدر ، والقامة

الذى اسقط الدهر أسنانه ، فكان أشبه الأشياء بثغر الأدرد(١) فنظرت جمال فرعها المرسل أرسال الحرير ، اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور

وكانت قد خرجت من المصنع فى أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته ، فاذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه ، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء ، وسماء مكفهرة الأرجاء ، وعيش كثير المؤونة ، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف ، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء ، ويتلمس المقرور النار ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار

فصل يحول الأفئدة الى صخور ، ويرد السائل الى جماد قد دهم فانتين وهى بين الخلة (٢) والقلة فزاد فى دينها وكساد حرفتها ، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط القضاء ، والح صاحب النزل قاتله الله فى طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين فى حياتها وحبب اليها قرب يومها

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد ، وأنها ان لم تتداركها بارسال اربعين قرشا لابتياع لباس لها ، فهى هالكة لا محالة . فوقع ذلك الكتاب فى نفس فانتين وأحزنها طول يومها ، ولما كان المساءانطلقت الى حانوت حلاق ، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى كان يمسك شعرها ، فانسدل على ظهرها وستر أردافها ، فصاح الحلاق : لله ما أجمل ذلك الشعر ! فقالت فانتين :«انظر كم تدفع من الثمن اذا بعتكه » قال : « أربعون قرشا »

---

(١) درد الرجل ذهبت اسنانه ، فهو أدرد

(٢) بين الحاجة والجدب

يستكف لا يعرف العشق ولا يفقه معنى المداعبة ، فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن الى شيء من ذلك ، على انه ما لبث أن هجرها بعد ان ضربها ونهرها

فخلا فؤادها من كل حب الا حب طفلتها ، فكانت تراها فى ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع فى سماء آمالهـا ، نقول « آمالهـا » لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التى تلوح لها بوارقها فى جو الخيال

ولو وقف بؤسها عنـد هذا الحد لأطاقت حمله ، ولـكن صاحب النزل كان يزيد فى ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة ، وأنها ان لم تسارع بارسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فانه يخشى عليها عادية الموت . ولا تسل عما حل بها حين أخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها من الألم عن حد الادراك،فجعلت تضحك وتهذى ، وخرجت تطفر فى الطريق طفر الأطفال ، وتضحك ضحك الأبله المعتوه وتقول لنفسها : « قطعتان من الذهب . .اللهم غفرانك . . ان هؤلاء القوم لا يعقلون ! . . »

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قـد التفوا حول طبيب الأسنان يعرض عليهم أسرار صـناعته وما يلتحق بعلاج الأسنان وتنقيتها ونزع المتآكل من الأضراس وغير ذلك . فاندست فانتين فى غمارهم وهى لا تزال على ذهولهـا تضحك ولا تعى ، فصـاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها : « أتبيعيننى أيتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب» قالت فانتين : « وما الثنيتان أيها الطبيب ؟ » قال : « هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقـدم ثغرك » فصاحت فانتين : « غفرانك اللهم ان هذا لهو الضلال المبين » وكانت بجوارها عجوز درداء(١) تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسـها : « قطعتان من العظم بقطعتين من الذهب ؟ لله ما أسعد تلك الفتـاة ! » . على أن فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب

(١) سقطت اسنانها

حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت اصبعيها فى أذنها كيلا يصل كلامه الى سمعها ، وهو مع ذلك يصيح فى أثرها : « أيتها الحسناء تمهلى فى الأمر واستوزعى فؤادك يلهمك القبـــول ، واعلمى أنك لم تغبنى فيمـــا عرضـــناه عليك من الثمن فاذا كان المساء فاغشينا بدارنا بمكان كذا » . فوقع كلامه فى أذنها برغم أصابعها ، وزاد فى نفورها ، فانطلقت حتى اذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز ، وهى أشد ما تكون غيظا ، فأخبرتها خبر الطبيب وما كان منه ، وقالت : « لقد بعنا الشعر لأنه يعود فينمو ، ولكن ما حيلتنا فى الأسنان ومفقودها كما تعلمين لا يعود وهى حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال » ، ثم غادرتها وانكفأت الى حجرتها ، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر فى مكانها حتى ندرت الابرة من يمينها ، فقامت مسرعة الى ذلك الكتاب المشؤوم وأعادت قراءته ورجعت الى جارتهـــا تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها ، فقالت لها : « انها مرض من الأمراض يعترى الكبير والصغير وهو اليوم أكثر وقوعا فى الأطفـــال » فقالت فانتين : « وهل يجر هـــذا المرض الى القبر ؟ » فقالت : « نعم يجر الى القبر اذا تخلت عن المريض العناية » فخرجت فانتين من عنـــدها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس . ولمـــا توفى الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقها الى دار ذلك الطبيب ، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين . ودخلت جارتها فى صـــباح الغـــد مبكرة اليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهى شاحبة اللون ، ساهية الطرف ، تنطق بوجهها آثار السهر ، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها ، وأسود من حظها ، وعلى القرب منهـــا شمعدان قـــد فنيت شمعته ، وخلفت على جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القر

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذى يقطع نياط القلوب

جزعا وتنادى : « ويلى عليك أيتها البائسة تشعلين الشمعة كلها فى ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر ، ومالى أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس ! » فالتفتت اليها فانتين وقد أهرمتهــا تلك الليلة الماضية ، فأخذت من سباتها وبلغت منهــا ما لم يبلغه كر الغداة ومر العشى عشرة أعوام كاملة ، فتقول لها : « ليس بى بحمد الله من شيء ، ومن هو أولى براحة البال منى ؟ قــد أمكننىالله من انقاذ طفلتى من يد الموت بهذا الذهب». وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها ، فتصيح : « اللهم انها ثروة ، فمن أين لك هذا ، وقد عهدتك بالأمس لا تعرفين وجــه الفضة ؟ » ، فتبسم فانتين ابتسامة تنم عنلعاب دام قد لوث ركنى شفتيها وثغرة مظلمة فى وسط ذلك الثغر المضيء ، فتعلم جارتهــا كما علم القارىء أن تلك الثغرة المظلمة هى مكان تينك اللؤلؤتين .

□

وانطوى خداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين ، فوجهت اليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضــة كما يرجف ، ولكنه شرك قــد مــده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها ، ولؤلؤ ثغرها ، وأصبحت عطلا من الحلى والجمال ، فكسرت تلك المرآة التى كانت تجد فى النظر اليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها ، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانيــة الى قاعة أخرى بسطح المنزل قــد أعدت لسكنى البائسين ، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض اذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طرحت علىالأرض

وخلقــة(١) كانت تسميها غطاء ، وكرسى قــد نزع تقــادم العهد أحشاءه ، وجرة كنت ترى الماء فيهــا تارة ســائلا وأخــرى جليدا ، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها ؛ وفتاة قــد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج فى الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم قــد أهملت رتق فتوقه ، وأغفلت سد خروقه . وما أدرى أكان ذلك لضيق فى وقتها ولعــدم اعتناء منهــا بأمرها ، وهى تنتعل حذاء قد كشر عن نابه ، تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقع،يكاد اذا تنفست فيه يتقطع

وتنكفىء الى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ، وعبست الخيبة فى وجه أملها،واشتد الأمر وضاق،وتقابلت حلقات الوثاق ، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار ، ولزمها ملازمة غرمائها بالليل والنهار ، فتقضى فحمة الظلام ، منفرة المنام سميرة الآلام ، حاضرة الدموع غائبة الهجوع ، وتفنى شمعة النهار بين وخز الابر ووكز الفكر وقد قدر عليهــا الله الرزق فأجراه لها من سم خيــاطها ، وهبطت أســعار الأجور فنزل أجرها فى اليوم من اثنى عشر صلديا الى تسعة فاستحال عليها امساك الرمق بهذا القدر اليسير . على أن طفلتها وحــدها كانت تكلفها فوق ذلك ، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها اربع قطع ذهبية ويقول لها فى كتابه : « لقد عنينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فان لم تسارعى بارسال هذا القدر من المال نبذنا (كوزيت) بالعراء ، وطرحنا بها فى مساقط القضاء ، فهى ان أخطأها برد الشتاء ، فليس يخطئها نازل البلاء ، ولقد أبلت اليوم من مرضها ، ولكنه ابلال يعقبه الموت ان فاتك فى أمرها الفوت »

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع فى نفس الجريح من ذلك

---

(١) قطعة قماش بالية

الكتاب فى نفس فانتين ، فانها قالت بعد تلاوته : « اللهم انك تعلم اننى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس ، وصبرت حتى ملنى الصبر ، وقد كانت لى صبابة عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منهـــا الحاجات حتى انضبتها ، اللهم لم يبق الا العرض ، وقد أمست تساومنى فيه الأيام، فلا راد لقضائك ، ولا مذهب من ورائك » . .!

ابى قدر الله الا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفــاف وأن لا تركب فانتين غير سبيل الخسارة ، فابتذلت خــدرها ، وباعت عرضها ، وعرض منهـا البؤس على هــذا المجتمع الانسانى أمة فاشتراها . عرضــها عليــه فى ســوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد ، وكان فيها من الزاهدين ، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم ، وزادت فى أسرهم . نفس حرة تباع بكسرة ، وعرض مغبون فيه يتساومون ، ولا زلنا نسمع على هذه المدنية آيات المدح والثناء ، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى أنحــاء البــلاد ، برفع الرق والاستعباد ، عن رقاب العباد . أين كتاب الســيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح ؟ . طليتم وجــه مدنيتكم بطلاء مــن كلماته ، وأفرغتم فؤادها مــن حكمه وعظاته ، فتنــاول حكمه منكم الظواهر ، ووقف عن تنــاول ما فى السرائر . . أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق ، وفاتكم أنه وان خف حمله عن أعناق الرجال ، فقد باتت تنــوء بثقله أعناق النساء

تملق المراة فتجوع وتعرى ، فتركن الى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها ، فتفزع الى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر ، فتبيع الناس نفسها ، فيتنافسون فى المساومة ، حتى اذا ظفروا بامتــلاك تلك

النفس المعروضة فى سوق الشقاء ، سجلوا عليها فعلتها تلك فى باب الزناء ، وتغاضوا عن تسجيلها فى باب الرق وهو بها أحق وهي به ألصق

ويل للمرأة من الرجل يسترقها . وما يدريه ما المرأة . هى وعاء النسل وظرف الحمل ، هى زينة الحياة ، وزهرة الجناة ، هى بيت الجمال وموطن الدلال . هى مسكن الضعف ومهبط العطف ، فبالله ما أكثر مخازى الرجال

ذلك مثل فانتين فى ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها ، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئةالعالم وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود ، فتسكعت فى الضلالة وتبسطت على الاثم ، وتمرغت فى حمأة الغى ، فخوى هيكلها من روح الشعور ، وكتب اليأس على لوح صدرها المثلوج قول ذلك الحكيم : « لا رغبة ولا رهبة » ، فأصبحت لا تخشى نازلا ، وأمست لا ترجو نائلا ، وباتت لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى

مر بها زمن وهى تصابر القضاء ، وتنازع الشقاء،وتعانق الخطوب وتصافح الكروب ، وتصبر على ذلك صبرا ، كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام ، فلم تنتفع بصبرها ، ولم تخرج من عسرها ، فما عساها تحذر اليوم وهى كالاسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها سيان أن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى . !

□

توجد بعامة القرى الصغيرة ، وخاصة القرية التى تسكنها اليوم (فانتين) طبقة من نشء الشبان العاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوى ، وان احدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه

ساكن باريز ، أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروى ، وقد جمعت هذه الطبقة فى قريتنا تلك من أمثال هؤلاء العاطلين عددا كبيرا فتراهم يجلسون فى صدور المجالس ، وقد نفخ شيطان العظمة فى معاطسهم ، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت ايمانهم : فمن تياه بكثرة رجاله ، ومن مدل بوفرة ماله ، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه ، ومن مولع بالتفنن فى أساليب كلامه : يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر الى المشاجرة ، فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة،وينطلق الآخر الىالتصيد والاقتناص كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل الى الصيد ومنهم من يتورن(١) ويتزين فهو أين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره ، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس فى الأندية حيث يفد السائحون

نعم وفيهم المتغالى فى التقليد ، والمولع بالجديد ، والذى لا يرى نفسه ظريفا الا اذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع النساء ، فتأنق فى التعريض بهن واستهتر فى تقريعهن

وكان الظرفاء فى هذا العهد يغالون فى البزة ويتأنقون فى الزى ، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار ، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف ، فوق شعر جعد كثيف ، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع دع الشوارب الطوال ، والزيق المرتفع ، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية ــ نشأ بينأفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم ، وكان مثله

---

(١) تورن أىتعطر فأسرف فى التعطر

تحلم بالسيرعلى كورنيش النيل

حكاية امرأة وزنها ربع طن!

مع الطفل الرابع بدأت المشكلة، وتضاعف وزنها من ١٠٠ إلى ٢٠٠ كيلوجرام

هذه المرأة وزنها ربع طن.. تحلم بأن تكون مثلي ومثلك.. تمشي على كورنيش النيل.. ترتدي أزياء ملونة. وفي العيد تصحب أبناءها للنزهة.. تجري وراءهم تلاعبهم.. تقفز .. تضحك .. ثم تجلس لحظة لتستريح قبل أن تستأنف اللعب.

تحقيق ـ منال نور الدين
تصوير ـ سامي بشرى

اسمها سمية .. وزنها ٢٦٨ كيلوجراماً ..تعيش مأساة بدأت قبل عشر سنوات.. وعندما وصل وزنها إلى ٢٠٠ كيلوجرام عرفت طريق الأطباء.. وتراجعت الأحلام.وتحولت إلى كابوس يمنعها حتى من الخروج إلى الشارع..

فالسمنة ستجذب إليها العيون.. وساعتها فإن الخجل سيكون تعبيراً مهذباً جداً لمشاعرها.

عندما وصل وزنها إلى ٢٥٥ كيلوجراماً لجأت إلى أعشاب التخسيس فزاد الوزن ١٧ كيلو مرة واحدة.. أخيراً استقلت سيارة نقل وذهبت إلى مستشفى الساحل التعليمي.. بعد ١٥ يوماً من المتابعة الطبية والنظام الغذائي وممارسة الرياضة نقص وزنها ٢٠ كيلوجراماً. سمية ذات الـ ٣٧ ربيعاً «حكاية» فيما يلي تفاصيلها.. تقول سمية: تزوجت قبل سن العشرين وكان وزني وقتها ٦٠ كيلوجراماً فقط، ثم أنجبت أبنائي الثلاثة بدون مشاكل صحية ماعدا ابني الرابع الذي أنجبته في سن السابعة والعشرين بعدها بدأت معاناتي الصحية من زيادة الوزن الذي بدأ يزداد عاماً بعد الآخر وتضاعف من ١٠٠ إلى ١٥٠، ثم إلى ٢٠٠ كجم في عشر سنوات وفي هذه الأثناء كانت كل حياتي تتم داخل غرفة نومي في بيتي. لأن حركتي خارج البيت كانت محفوفة بمشاكل لا حصر لها أولها وسيلة النقل التي سوف أستقلها لأن التاكسي لا يمكن أن يستوعبني وكذلك وسائل المواصلات العادية مستبعدة تماماً من تفكيري. ولذلك لم أكن أذهب إلا من خلال سيارة نصف نقل أفترش ظهرها حتى أستطيع الجلوس بحرية ولكنني كنت ألمح في عيون من يراني من الناس بعض النظرات التي لها معنى وأفهمها جيداً. فبعضهم يضحك والآخر يتحسر وقلة منهم يدعون الله أن يخفف من آلامي.. ولذلك لم أخرج من بيتي خلال عشر سنوات إلا نادراً جداً. تصمت سمية قليلاً ثم تضيف : بدأت الخلافات الزوجية تنشب بيني وبين زوجي بسبب زيادة وزني فذهبت إلى طبيب يعالجني بالأعشاب الطبية وكانت الكارثة فقد زاد وزني من ٢٥٠ إلى ٢٦٨ كيلوجراماً وضاقت أحلامي ولم أعد أقوى على فعل أي شيء سوى الدعاء لله ودموعي التي تؤنس وحدتي باستثناء شقيقتي التي تقضي لي احتياجاتي كلها وهي ترافقني وموجودة معي بالمستشفى. تضيف سمية أن فترة بقائها في المستشفى قد تمتد شهوراً طويلة وفقاً لما أخبرها به الأطباء وتمارس رياضة المشي مرتين يومياً في ردهات الدور الخامس ولمدة ساعتين ومن هنا أصبحت صديقة للممرضات وأهل المرضى الذين يتوافدون على غرفتها للاطمئنان عليها. سألتها ماذا تتمنى الآن؟ انطلقت بنبرات يملؤها التفاؤل عاوزة أمشي على الكورنيش، أو نفسي أرتدي فساتين بألوان زاهية ومنقوشة، وأنا مصممة على خفض وزني وعزيمتي قوية، ومدربة الرياضة كافأتني بزيادة ساعات التدريب لأنني أتجاوب معها بسهولة حتى التمرينات الأرضية لا تزعجني، فقط أحتاج إلى كرسي أستند إليه عند الوقوف بعد التمرينات الأرضية! وعندما سألتها هل يزورك ابناؤك؟ امتدت يداها للمنضدة المجاورة لسريرها وتسللت أناملها لتلتقط من بين أوراقها كراسة تضم صورتين واحدة لفتاتين وأخرى لصبيين يافعين هم كل حصاد رحلة العمر وتأملت فيهما جيداً، ثم أجهشت بالبكاء ولم تتكلم! وعلمنا أنها لم تر أولادها منذ فترة طويلة، بعد أن منعهم زوجها من زيارتها حتى قبل دخولها المستشفى. متى يلجأ الطبيب للتدخل الجراحي للقضاء على السمنة؟ الإجابة يحددها د. يحيى جمعة ـ رئيس قسم جراحة التجميل بمستشفى الساحل ـ حيث يرى أن دور الجراحة يأتي بعد الريجيم الغذائي كعلاج للأماكن المترهلة التي تشوه الشكل العام للجسم وتنقسم جراحات التجميل للسمنة إلى نوعين: شفط الدهون، استئصال الدهون. وشفط الدهون ليس علاجاً للسمنة لكنه يستخدم لإزالة

البـروزات الموجـودة فى مناطق الجـسـم كالأرداف، الثديين، الرقبة، والأكياس الدهنية بالذراع أو السـاق، والشـفـط لا يقلل وزن الجسم لكنه يحسن المنظر العـام له. أمـا استئصال الدهون فإن له وظيفتين إما تجميلى وإما وظيفى بمعنى الاستئصال لسهولة حركة المريض مثل حـالـة (سمـيـة) التى تسبب لها الدهون إعاقة فى الحركة، ولكن نزع الدهون جراحياً يتم على مراحل حيث يعتمد على حالة المريض أثناء التـخـدير باعـتـبـار أن الدهون تحتوى على سوائل مثل الدم والبـلازمـا التى تحتوى على مواد كيميائية مثل البوتاسيوم والصوديوم ويجب المحافظة على نسبة معينة لهـمـا فى الدم أثناء التـخـدير ولذلك نحن نستأصل الدهون بحساب حتى لا تتأثر هذه النسب. ويضـيف الدكـتور يحيى : بالنسـبـة لحالة سمية سوف نبدأ باستئصال الدهون من الثديين ثم البطن ثم الأرداف ثم الذراعين والمسألة تحتاج إلى وقت لأنها إذا كانت قد وصلت للسمنة المفرطة فى عشر سنوات فـإنهـا تحـتـاج على الأقل لمدة عام لإنقاص وزنها بالريجيم والجراحة والرياضة أيضاً. يخـتلف عـلاج السمنة المفـرطة الناتجـة عن زيادة تناول الطعام عن تلك الناتجة عن خلل فى الغـدد الصمـاء حيث إن التـعـامـل مـع الأخيرة يبدأ بعد العلاج بالهرمونات وفى الحالتين يتطلب الأمر التدخل الجراحى. د. عادل عبدالعزيز- رئيس قسم الجراحة العامة بالمستـشـفـى - يؤكـد أن التـدخل الجـراحـى لحالات السمنة المفرطة ضرورياً على أن يتم قبل سن الخمسين وذلك بهدف تخفيض الوزن بحـيث لا تحـدث أى أضـرار خطيرة على الحالة الصحية عموماً.

السمنة المفرطة لها تأثير خطير أيضاً على الجهاز الدورى وأمراض القلب شديدة الخطورة وعلى حد قول د. سمير عبدالصادق - أخصائى القلب - والمشرف على عـلاج «سـمـيـة» بأنها تحدث قـصـوراً بالشـريان التـاجى، والدورة الدموية بالمخ، وتضخم عضلة البطين الأيسر، وهذه المضاعـفـات تكشف عن نفسـهـا فى ارتفاع كبير فى ضغط الدم، والأزمات القلبية وجلطة ونزيف المخ إلا أن حالة سمية كان واضحاً أنها تعانى ارتفاعا كبيرا فى ضغط الدم وأنيـمـيـا، ومع الانخـفـاض التـدريجى للضـغط اسـتطاعت ممارسـة التـمـرينات الرياضية بمساعدة «كابتن نجلاء أحمد» التى تقول إننى لا ألتزم بأى قـواعـد رياضـيـة أثناء ممارسة التمرينات مع سمية لأنها لاتعانى أى مرض عضوى وتستطيع مزاولة أى تمرين حتى تلك التى تتطلب منها الجلوس على الأرض! ■

تتحرك بسيارة نصف نقل

سألناها هل يزورك أبناؤك.. فأجابتنا بالصمت والبكاء

حالة أخرى

تعانى صاحبتها سمنة مفرطة حيث يصل وزنها إلى ٢٠٠كجم عمرها ٤٨ سنة خرجت من بيتها مرتين الأولى منذ ٢٠ عاماً حيث توجهت لإحدى المستشفيات لاستئصال الغدة الدرقية، والثانية عندما جاءت إلى مستشفى الساحل التعليمى للعلاج على نفقة الدولة منذ حوالى شهرين وبعد أن وصل وزنها ٢٠٠كجم وصارت تعانى سمنة مفرطة نتيجة استئصال الغدة الدرقية، وتخضع الآن للعلاج من خلال تناول هرمونات تعويضية (الثيروكسين).

■ عادل عبدالعزيز

وهى تعانى «مكسديما» بمعنى وجود ترسيب لمواد بروتينية تحت الجلد تؤدى للتورم وهى ليست دهوناً لكنها تؤدى لحالة من الخمول الفكرى والعضلى وانخفاض عدد ضربات القلب وضغط دم مرتفع.

عندما قابلتها رفضت ذكر اسمها أو تصويرها إلا بعد إخفاء ملامحها وأجهشت فى بكاء حاد، وتنتظر رحمة السماء فى العلاج بالهرمونات كى تتخلص من وزنها الثقيل وتستعيد اتزانها النفسى والجسمى.

بدناء حول العالم

● والتر هادسون هو أتخن رجل فى العالم وصل وزنه ٦٥٠ كيلوجراماً، يعيش فى مدينة نيويورك، ويلف نفسه بملاءة لعدم وجود ملابس على مقاسه، تمكن من إنقاص وزنه إلى ٢٥٠ كجم فى عدة سنوات!

● مواطن أمريكى عمره ٣٢ عاماً استطاع انقاص وزنه من ٣٨٧كجم إلى ٢٢٥ كيلوجراماً فى عامين، بعدما حذره الأطباء من الموت قبل الرابعة والثلاثين إذا لم ينقص وزنه!!

● فى جدة تم منذ عدة سنوات استئصال أكبر كرش لرجل وزنه ١٣٦ كيلوجراماً بلغ حجم الكرش المستأصل فى صورة دهون ١٨ كجم!!

● استطاع أمريكى إنقاص وزنه من ٢٦٠ كيلوجراماً إلى ٧٩ كيلوجراماً فى ١٨ شهراً وذلك عندما تخلى عن تناول كميات كبيرة من المكرونة والفاكهة!

● تأسست فى ألمانيا أول وكالة عالمية لزواج أصحاب الوزن الثقيل حتى لا يحتاروا فى العثور على شريك الحياة!

● أوضحت الإحصائيات الأمريكية وجود ٥٨ مليون شجرة جميز أمريكانى يعانون الزيادة المفرطة فى الوزن!

● يوجد على مستوى العالم ١١٢,٤٠٨ ألف ناد ومركز لرعاية البدناء تضم ثلاثين مليون عضو.

● تتعرض النساء لاحتمالات الإصابة بالسمنة أكثر من الرجال بسبب الحمل والولادة وتربية الأبناء مما يعرضهن لارتفاع ضغط الدم والسكر والذبحة الصدرية.

ريجيم سمية

برنامج الريجيم الغذائى الذى استطاعت الدكتورة فاطمة زكى من خلاله إنقاص وزن سمية ٢٠ كيلوجراماً فى أسبوعين فقط إلى جانب الرياضة بالطبع هو كالتالى :

● الافطار:
٢ بيضة مسلوقة + حبة خيار (أو جزر) كوب شاى به نصف ملعقة سكر، ويمكن استبدال البيض بقطعة جبن قريش أو ثلاث ملاعق فول مدمس.

● الغذاء
ربع دجاجة مشوية أو مسلوقة، يمكن استبدالها بشريحة لحم أو سمكة مشوية (٢٥٠) جراماً +سلطة خضراء، ويمكن تناول ثمرة فاكهة واحدة بعد ساعتين من الغذاء.

● العشاء
كوب زبادى + ملعقة ردة + حبة طماطم أو خيار.

١ـ وزنها الحالى ٢٣٠كجم، والمشوار لايزال طويلاً!
٢ـ الابتسامة لا تفارق وجهها، وعزيمة فولاذية للتخسيس
٣ـ بيضة وطماطم وخيار.. أحمدك يارب!
٤ـ تدريبات رياضية أرضية.. يارب أكون غزال!
٥ـ مستسلمة لفريق العلاج د. سمير، د. يحيى، د. فاطمة، نجلاء
٦ـ علاج سمنة الغدد الصماء يحتاج رعاية نفسية وطبية معاً
٧ـ د. عادل عبدالعزيز - رئيس قسم الجراحة

أسرار جمال كلوديا شيفر

تعشق الخضراوات ولا تشرب القهوة

استحوذت كلوديا شيفر عارضة الأزياء الألمانية الشهيرة على قلوب عشاقها الرجال قبل السيدات، باعتبارها تجسيداً للأنوثة وقد أفصحت النجمة عن بعض الأسرار الخاصة بجمالها :

إعداد - ريم عزمى

قالت عن جسدها : إن مهنتها تتطلب كثرة السفر، لذلك فهى تحرص دائماً على معالجة الضغط العصبى، وهى تصعد السلالم على قدميها ولا تتناول الطعام فى الطائرة لكى تدخر طاقتها، وتحاول العثور على أخصائية تدليك بعد رحلات الطيران الطويلة، أما فى حياتها العادية التى تقضيها فى إمارة موناكو، فتمارس الرياضة الشاقة،وتبدأ يومها بركوب الدراجة لمدة ٣٠ دقيقة، ثم يتبعها ٣٠ دقيقة أخرى للجرى، وتنتهى الفترة الرياضية بقضاء

■ الماسكارا أكثر قرباً لقلبى

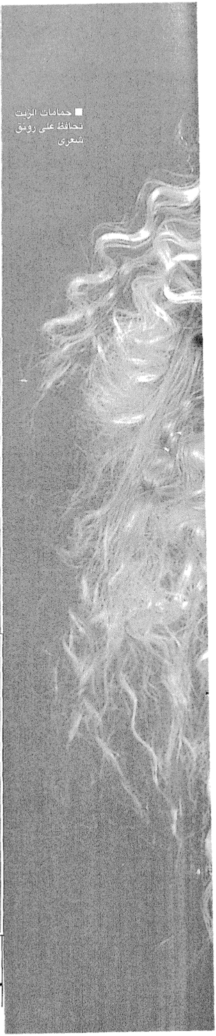

■ حمامات الزيت تحافظ على رونق شعرى

عني أيها الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا » ثم تلتفت الى جافير فتحاسنه فى الخطاب ، وتنتقص أمامه من قدر مادلين، وتشرح له سوء مغبتها ان هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه ، وتعوذ به من عقابه ، وتنتهى بقولها : « ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى الا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى » ثم تولى الى الباب وتضع يدها على غلقه

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود الى نفسه ويخرج من جمود كان فى أثنائه كالصنم ، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر : « يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها ؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن ايامها رغم المعارضين ! »

وكان مادلين مصغيا كل الاصغاء لما دار بينهما من الحديث، فالتفت الى جافير ، وقال له : « اعلم أيها المفتش انى أنا الذى آمر بتسريح هذه المرأة ، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة ، فانى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم ، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادىء بالاساءة ، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة »

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه : « ان تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فانها أهانت فتى شريفا وآذت شيخا جليلا ، فلئن كانت قد أعذرت فى الاولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية ؟ »

قال مادلين : « أما عن الاولى فقد صدقتك الخبر ، واما عن الثانية ، فان الأمر لمختص بى ، والعقاب متعلق بارادتى ، فاما عفوا بعد واما جزاء ! »

قال جافير : « عفوا يا سيدى ان الأمر لا يقتصر على شخصك ، ولكنه يتناول العدل كله ، وبمثل هذا العمل

وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة »

قال مادلين : « اعلم أن العدل نوعان : عدل يجـرى به الوجدان ، وعدل تجرى به الشريعـة . ومن كان صادق الوجدان ، كان خليقا بالتوفيق الى سبيل الحق. ولقد وفقنى الله الى استبطان أمر هذه الفتاة ، وألهمنى الوجدان براءتها ، فلا يستطردن بك جواد العناد فى سبيل ايذائها ، فانك لن تنالها بسوء وانا من الشاهدين »

قال : « انى لأرانى غير قادرعلى فهم ما أسمع وما أرى » !

قال : « فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم » ..!

قال : « انى لأخضع للواجب وهـو يدفعنى الى وجوب الاصرار على سجن هذه الفتاة ستة اشهر » !

قال : « بل يدفعك الى اخلاء سبيلها ، فلا تسجن يوما واحدا »

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عنـد حد اليأس من اقناعك ، فانى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة ، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى اياك ، فانى لأمادك حبل المقاومة فى شأن هذه البغى ، وما وقع لى قبـل اليـوم أن اقاوم مشيئة الرئيس . ولكن المامى بواقعة الحال وتثبتى من الأمر ودخول الحادثة فى دائرة اختصاص الشرطة التى انا كبيرها — كل أولئك يدفعنى الى سجن هذه الفتاة » !

وما كاد ينتهى من قولته حتى تقطب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له بصـوت سبقتـه الى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة : « لقد أسمعتنى أن الحادثة تدخل فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنت كبيرها . واسمعك السـاعة ان المـادة التاسعة واخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات ، تقضى بأن اكون القاضى

المطلق. فبناء على صريح تلك المواد احكم ببراءة فانتين وآمر بتسريحها

« وأزيدك بى علما وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت »

فاستقبل جافير هذه الضربة الاخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود أسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الارض بوجهه ، وخرج وما ينظر ما بين يديه غما . ومر (بفانتين) فالتصقت بعضادة الباب لتخلى له السبيل ، ولبثت فى مكانها ، كأنها بعض الأنصاب ، وذهلت وحق لها ان تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت باذيال الاول نجاتها وكمن تحت رداء الثانى هلاكها — هذا يصعد بها الى مراقى الهناء ، وذلك ينزل بها الى درك الشقاء وهى بينهما كالأكرة اذا قذف بها الثانى الى ظلمة اليأس ، ردها الاول الى نور الأمل . كأن أحدهما ملك يكلأها ، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخبطها بمس منه . وقد انزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها . على أنها ما لبثت بعد الذى قد رأته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على ارادته السبيل أن أخذت تحاسب نفسها وتقول : « لى الويل لشدما كنت أنفر من ذلك الرجل ، وأحمل ضب الضغن وأعزو الى فعله سوء ما وصل اليه أمرى من الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادر على غير الصفح ، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمناضلة دونى. فلا أحسبنى بعد ذلك الا واهمة فى أمره جاهلة مقدار خطره — أو ليس

الذى قد غلب جافير على أمره بقادر على أن يحول بلفظ منه بينى وبين الهناء ، فأموت فى السجن حزينة ، وتموت بموتى تلك الطفلة اليتيمة ؟ اللهم ان هذا هو الخلق الكريم وتلك هى النفس الزكية ! »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل فى صدرها ووجدها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن فيها ، حتى أصبح النفور ميلا والبغض حبا ، وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل ، فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء

□

ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين الى فانتين وقال لها وهو يغيض من عبرته ، ويخفى من حسرته : « لقد وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك ، فما منعك أن تنفضى الينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع ؟. ولو فعلت لأنصفناك . ولكن أبى الله الا أن يجرى القدر بما شاء ، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بى ، فانى كافلك وجامع بينك وبين طفلتك ورادك الى طاعة الله بحفاظك على عرضك ، وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعى (١) نفسك أسفا على أثر ماضيك ، فان صح ماتقولين ولا اخالك الا صادقة فيه ، فانك لم تخدشى وجه العفاف ، ولم تعقى الفضيلة ، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة الا طاهرة الذيل عفيفة الازار »

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها ، فرأت جنة يميس فيها النعيم وتجرى من تحتها أنهار السعادة ، ورأت نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف ، وتتكىء على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة

---

(١) أى لا تهلكى نفسك

وتزاحمت على نفسها جيوش الأماني فخرج بها السرور عن حد الادراك وترامت على يد مادلين تقبلها ، ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين ، فحملت الى دار المرضى التي أقامها بجوار داره . فأنيمت فيها ، وأوصى بالعناية بها وانصرف الى عمله

وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسها فمر بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النـوم فنامت حتى أظهر(١) النهار أو كاد ، وشعرت عنـد يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس ، فكشفت جانب الستار ، فاذا هى ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره كالراهب المتبتل يضـرع الى شىء فوق رأسـه ، فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع الى صليب كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته ، وظهر لها فى هـذا الموقف ، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى فكرهت أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة ، ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء : « ما الذى يصنع سيدى هناك » فأجابها وهو يومىء الى الصليب : « جئت أصلى لذلك الشهيد فى السماء » . ولو أنصف لقال : « لتلك الشهيدة فى الارض »

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال عنها فما يستقر فى حجرته الا ريثما يعود لتنسم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا ينصرم عمرها ، وانتابته الهواجس فما احتـواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن

☐

وننتقل بالقـارىء من حجرة مادلين الى حجرة جافير ، فيرى رجلا قد أقامه الحقد ، وأقعده الحرد(٢) ، يكاد ينشق

(١) أظهر النهار اذا كان وقت الظهيرة
(٢) الغضب الشديد

غيظا ويقطر غضبا على أثر تلك الضربة التى تلقاها بصدره الرحيب فى مخفر الشرطة ، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور ، ويململ تململ الموتور قد أمسك يراعا وأنشأ يسطر كل ما أملت عليه الموجدة وأوحى اليه الضغن

وفى صباح تلك الليلة بكر جافير الى صندوق البريد ، فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذى سطره بحجرته ، وعنون غلافه الى كبير الشرطة بباريس

وما قرأ هذا العنوان قارىء وكان ممن يعرفون جافير وكتابته ، الا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الاقالة على أثر حادثة الأمس

ولما استنار مادلين دفائن (فانتين) وعلم بحقيقة أمرها ، وألم بأطراف تلك المؤامرة التى كانت سببا فى خروجها من المصنع ونزولها الى تلك المنزلة من الحياة ، سارع بارسال كتاب الى أصحاب النزل يطلب فيه أشخاص (كوزيت) ووجه اليهم بقدر من المال يبلغ مثلى ما كانوا يطالبونها وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة باحضار الولد

□

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى ، فقال لزوجه وهو يتهلل فرحا :

لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعنى فانتين) ، وأكبر ظنى أنها ترتع اليوم فى ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة ، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع . وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبر عن كرم . وانى لأتنسم منه ريح الأصرار ، وأرى بين سطوره جداول يجرى فيها الكسب وتسيل السعادة ، فاحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة ، واحذرى ان تطير فان فى امساكها اطلاقا لأرزاقنا » ، ثم قام الى دفتر ، فزور فيه

كل ما زعم انه انفقه على (كوزيت) من اجر الطبيب ، وثمن الدواء ، وما زال يرصد الخبيث من ارقام الحساب ما يملى عليه الطمع ، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما ارسل مادلين

وفى اليوم التالى وجه مادلين الى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب اليهم المسارعة بارسال الطفلة فقال الرجل لزوجه : « ألم انبئك بما سيكون من أمرهم ، اذا نحن أحسنا حفظ هذا الكنز الثمين ، فانظرى كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بارسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه ، فلنمسكن الطفلة حتى حين » !

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفىء سراج حياتها شيئا فشيئا ، ويدنو منها الموت يوما يوما ، وقد اثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم ، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه ، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين

وما خفى على الطبيب أمرها ، فانه أنذر مادلين بقرب اجلها وقال له : « انى أراها هامة اليوم أو غد ، فان كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه ان كان من الغائبين ، فانكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها »

فجزع مادلين جزعا شديدا ، واشفق أن تموت الوالدة ، قبل أن ترى الولد ، فقام لساعته الى ورقة وكتب فيها الى اصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

« اذا أتاكم رسولى حامل هذا ، فادفعوا اليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها »

وارتأى أن يكون هو الرسول الى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وصحت عزيمته على السفر . فبكر من غده الى دار حكمه ، وجلس لانجاز شغله واراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الأعمال ، وانجز فى يومه ما يطالبه به الغد

وانه ليتصفح الأوراق وينظر فى الشؤون اذ جرت جوار

بالنحوس ، وعدت عواد بالشرور ، ووقع فى حساب القدر ما لم يقع فى حساب مادلين ، فقيل له أن جافير بالباب يطلب الاذن بالدخول . فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم فتطير ، وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة ، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت ، وأذن لجافير بالدخول ، وكان اذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر فى أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين ؛ ولبث واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الاذن بالكلام . . كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره ، ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف

ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتى الساعة وينظر الى جافير وهو راسخ فى مكانه ، وكان يكون من المخالطين له ، والواقفين على أسرار طبائعه ، والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذى بينا نراه فى لباس الجندى المحارب ، اذ هو فى ثياب الزاهد الراهب ، لركن عند رؤيته ، وتفرس فى مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين ، قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل ، وقال لأمر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المستكين ، وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة

□

وفى الواقع كانت سحنة جافير تنم عما فى ضميره فما مر بخلجان قلبه شىء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس ، الا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء

قلنا انه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما وما زال واقفا خلفه موقف الجندى فى صفوف النظام

لا تنبعث له جارحة ولا تطرف عين ، وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك ، فامتزج بأشعة بصره نور الاخلاص وجال فى محياه ماء الخشوع ، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة ، وسكون لم تعره كلفة ، حتى التفت اليه مادلين فرأى رجلا تبدو عليه سيما الانكسار، وتقرأ فى عينيه آية الحزن ، قد احتشم احتشام الجندى امام القائد ، والمجرم بين يدى القاضى ، فقال له : « ما خطبك أيها المفتش ؟ »

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو اليه حصاته ؛ ثم اندفع قائلا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم :

جئت انهى الى سيدى خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم

قال مادلين : « وما عسى أن تكون تلك الجريمة ؟ »

قال : « ان أحد عمال الحكومة الأدنياء قد رمى بعض سراة القضاة فى شرفه ، وطعن عليه فى سمعته ، فدفعنى الواجب الى رفع الأمر اليك » . قال : « أتعلم من هما . . . ؟ »

قال : « ما أعلمنى بهما . أما المقترف فأنا ، وأما المقترف عليه فأنت »

وما وقع فى سمع مادلين الخبر حتى وقع فى نفسه شيء من الضجر ، فتململ فى مكانه ، واندفع جافير فى حديثه فقال :

ــ انى لأطلب اليك رفع أمرى الى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفر عن خطيئتى،ولا تعجبن لعدم التماسى الاقالة، فانني ان فعلت ذلك خرجت خروجا. ولا يلحقنى معه العار. ولكنني خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملوما مدحورا

« ولقد كنت معى بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء ، وأنت من الحق أعزل ، فلتكنه معى اليوم وأنت شاكى سلاح الحق ثاو بحسن الفضيلة »

قال مادلين : « لقد جعلتنى بحيث أرى أنك أتيت عظيما وارتكبت جسيما ولا أذكر بينى وبينك أمرا يدعوك الى قول ما أسمع منذ اليوم ، ولقد أطلت فى اتهامك لنفسك ، وبالغت فى وصف اجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التى تزعم أنك فعلتها ؟ »

قال جافير : « رميتك فى شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس أمساكك وسجنك . وذكرت له فى شقة رفعتها اليه انك مجرم قديم ، وانك ضالة الشرط التى تنشدها منذ حين ، ولقد كتبت ما كتبت وقسطى ممتلىء من المرة(١) الصفراء ، وغضبى يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغى التى غلبتنى عليها ،ووقفت دونها تلك الوقفة التى قطعت على ارادتى السبيل »

□

ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله (مجرم قديم) ولكنه يتماسك. واستطرد جافير فى حديثه فقال : «وما حملنى على اتهامك أيها الشيخ الا آيات شهدتها وعلامات تحققتها : رأيتك شديد العضل قوى الساعد سديد الرماية اذا رميت ، ولمحت بأحد فخذيك فدغا ، وقد تبينت منك الأولى يوم العجلة ، وما نسيت ما كان من دخولك تحتها ، وانقاذك حياة ذلك الشيخ الفانى ، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك وشهدت الثالثة فى مشيتك ، فألقى فى روعى أنك (جان فالجان) »

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر (٢) من أنامله اليراع الذى يمسكه فيقول وهو يغالب

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التى توجد فى مرارة الانسان

(٢) ندر الشىء سقط . يندر اليراع من أنامله يسقط

اضطرابه : « ومن هو ذلك الرجل ؟ » . فيجيبه جافير « هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون فى الارض ، ولقد رأيته منذ عشرين حولا فى سجن تولون ، وهو أشبه الناس بك ، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة فى بيت أحد العباد ، وجنى فى الطريق على غلام صغير ، فاغتصب منه ما أدرى أى شيء ، ثم انه اختفى بعد ذلك ، فجدت الشرطة فى طلبه ، وجد فى اختفائه حتى اذا شجر بينى وبينك الخصام فى أمر (فانتين) وخرجت من موقفى امامك بذلك الخذلان ، حملنى الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل ، ومثل لى الحنق أنك جان فالجان وكانت تلك الآيات التي ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن من الراحمين »

قال مادلين وهو يبتسم ابتسامة الله اعلم بما يكمن فى أثنائها من المضض : « وماذا كان جوابهم على كتابك ؟ »

قال : « كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون وحسبونى محمقا ، ولقد أصابوا فى رأيهم فى كما أصبت عين الخطأ فى رأيى فيك »

قال : « لقد أحسنوا فى جوابهم ، واحسنت فى رجوعك عن وساوسك » . قال : « وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها ، ووقع جان فالجان فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب »

فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به ، وما يريد ان يصيح : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « قبضوا عليه وقد ظهر حائطا باحدى الحدائق ، واقتضب فرعا من التفاح ، فسيق الى المخفر والفرع لايزال فى يده ، ثم أودعوه سجن الاحتياط ، وكادت تختفى حاله فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن أراد الله له سوء العاقبة

« فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه ، فأمر قاضي التحقيق بتحويل أهله الى السجن العام ، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا فى أعماق السجون ، قد أكل سجن تولون شطرا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثانى ــ شهدوا منه فى آخر أيامه شيئا من الاستقامة ، وحسن السيرة ، فأقاموه سجانا ولما جيء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به : « ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألست جان فالجان رفيقى بالأمس فى سجن تولون ؟ »

فقال الرجل : « اتق الله يا أخى .. فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وانما أنا (شاماتيو) .. »

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود ــ وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع ــ فبعث كلام السجان الشك فى نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا الى معرفة الارض التى نبت فيها ، والحرفة التى كان يزاولها ، فاذا هو مشذب للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به فى قرية (فافيرول) وأجهدت الشرطة نفسها فى الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح فعمدوا الى البحث عمن كان معه فى السجن فى ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود فى السجون ، فأشخصوهما الى حيث يوجد ، فلم يلبثا أن عرفاه كما عرفه ذلك السجان

« وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأنك فراعهم منى هذا الأمر فكتبوا الى ما كتبوا ورمونى بالنزق والتسرع ، فكبر على الأمر وقلت فى نفسى لعلهم خدعوا فى أمر هذا الرجل فتالله لأذهبن لأراه رأى العين ، فرغت روغة فاذا انا هناك فنظرت جان فالجان ورأيت نفس الرجل الذى شهدته

فى سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندى مجال للشك ولا مسرب للوسواس ، وعلمت أنى جنيت عليك جناية يضيق عنها العفو ، فلو أننى كنت موفقا فى العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود فى السجن . وانك لتعلم كيف يكون عقاب العائد الى الجريمة وخاصة ان كان من أولئك المراقبين »

قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر فى بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات : « ما انا ولهذا الحديث فان بنا من الاشتغال بشؤوننا ما لا نفرغ معه الى الاشتغال بأمر الغير – اذهب يا جافير الى فلانة التى تبيع الخضر بزاوية المكان الفلانى ، ومرها أن ترفع ظلامتها الينا » ، ثم أمره بأوامر أخر ، فقال جافير : « وددت لو كانت لى فى الوقت فسحة ، فأقوم بامضاء أمرك فانى على عزم الرحيل فى هذا المساء لأشهد غدا مع الشاهدين ، فان غدا ليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر جان فالجان ، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم »

فاسود فى عين مادلين ما بينه وبين جافير وقال وهو يتكلف السكينة : « أفى غد يخاصمون هذا الرجل ؟ » قال : « نعم » . قال : « وكم يمتد أجل ذلك الخصام ؟ » . قال : « يوما أو بعض يوم » . قال : « حسبك » . ثم أذن له بالخروج فلبث جافير فى مكانه وقال : « انى لأطلب اليك الاقتصاص منى »

فرفع مادلين رأسه وقال : « انى أرى فيك حصافة وارى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالتكريم ، وكان سبيله أن يعان على أمره ، وأن يؤخذ بيده فى زلته ، فلقد

عن لنا أن نقرك فى وظيفتك ورأينـا أن الأمر أيسر مما فى نفسك ، فدع عنك هذا الاغراق فى الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين » . فرفع اليه جافير طرفا قد جال فى انسانه الاخلاص ونطق عما يكمن فى نفسه من الوجدان. وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه ، واستعار الرقة من شعوره : « انني لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته ؛ فلا أرى فى موضعا للسماح » . قال مادلين : « ان كنت قد أجرمت فما وقع اجرامك على غيرى وما كان لأحد أن يخاصمك وأنا من الصافحين »

قال : « عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلى ، وقد حاولت الايقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك ، فخنت الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل ، ولو أننى فعلت ذلك عن غير رغبة فى الانتقام اوجدت لنفسى السبيل الى جميل العذر وقلت انى شرطى ، وللشرطى أن يشتبه ولا تثريب عليه اذا اخطأه التوفيق ، ولكننى فعلته متعمدا ورميتك متقصدا ، وانى أشهد اننى كنت داتى القسوة نائى الرحمة لا أعرف التجاوز عن الخطيئة ولا أعرض تلبيب (١) كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة ، فكيف ارضى اليوم لنفسى ما كنت أأباه بالأمس على غيرها . ونفسى كما تعلم أكثر النفوس حرمة على ، واولاهن منى بحسن المناصحة .. أرأيتك كيف يجمل بى أن انصب بدنى فى سبيل اصلاح الغير ، وانام عن تقويم ما اراه لنفسى من الاعوجاج ؟ انى اذن لمن الظالمين !

« على انى لا اود أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد ، فأنتصر منك بك ، كما انتصرت بك تلك البغى من ذلك الشاب . ولا نلبث على هذا القياس ان تشتبه علينا الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت

---

(١) اخذه بتلبيبه : جره

رءوفا بالعباد ، واجمع الى تلك الرأفة صحبة العدل ، فان في ذلك ردعا للنفوس ، وعزا للشريعة وخـــذنى باقرارى ولا تطمع مجرما فى غير العقاب ، فلكم كنت أقول لنفسي وهي تجد فى طلب الظالمين : جدى أيتها النفس فوالذى انت بيده لئن انحـــرفت شـــعرة عن سواء السبيل لأكونن بك اول الموقعين » !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها : « سننظر فى امرك » ثم مد يده للسلام . فتقهقر جافير وهو يقول : « عزيز على أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة » ، ثم ركع امامه خاشعا واستقبل الباب . ولما بلغه انفتل اليـــه ثانيا وقال : « سأقوم بشؤون وظيفتى حتى يأتى الخلف » . ثم ولى وجهه وغادر مادلين فى مكانه يلقى بسمعه الى وقع تلك الخطوات المطمئنة

لم تكن تلك الحوادث التى نسطرها للقـــارىء الـــكريم بواضحة الأثر فى القرية التى وقعت فيهـــا ، ولـــكن بعض ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لهـــا شبه الذكر فى النفوس

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الـــكتاب ، وفيـــه من الفراغ ما نلام معه على عدم الاتيان بما يسده ، فها نحن أولاء نذكر ما وصل الى علمنا من خبر ذلك الأثر ، وان كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع ، ولكنا نثبته هنا ارادة الوصول الى الحقيقة :

ذهب مادلين الى فانتين يعودها ، فى عصر اليوم الذى وقع له فى صباحه مع جافير ما وقع ، وكان من عادته أن يغشاها فى حجرتها فوقف فى هذه المرة ، وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها

وكان ببابها اثنتان من المرضات الراهبات تدعى احداهما (بربيتى) والاخرى (سمبليس) وكانت الاولى من ســكان

الأطراف بالريف ، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة فى الزهد أو نزوع الى خدمة الدين ، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منــه الرزق ، فدخلت فى بيت الله دخــول الخادم فى بيت المخدوم ، واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ، ولم يدعها الوجود فى الدير الى فوق ماكانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها ، شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يألفون النعيم ، ومن قارن بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الاول وخشونة الثانى نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة ، فلو شاء الناسك أن يصبح راعيا وأراد الراعى أن يمسى ناسكا لوجد كلاهما الى قصده سبيلا ممهدا وما هو الا أن يدخل أحدهما فى ثوب صاحبه

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب الى الحمرة واقدام فى الأمور ، وصلاح فى العمــل ، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجــــة ، وكان بأخلاقهــا بعض الشدة فهى جافيــة الطبع تغلظ القــول للمريض ، وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية ، وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فمها من ذلك الدعاء

□

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض ، فهى بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة ، ولقد وفق (فانسان دى بول) الى وصف الراهبات فى تلك الكلمة التى جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية ، قال :

« التواضع قناعهن ، وخوف الله شعارهن ، والطــاعة حرزهن ، قد اتخذن البيع للتهجد ، ودور المرض للتعبد ، وللمخاوف الطرقات ، وللرياضة الحجرات »

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة فى سياق الحديث عنـد ذكر (سمبليس) ونزيد عليها فنقول :

يقف الناظر الى تلك العذراء موقف الذاهل اذا سأله عن عمرها سائل ، فقد كتم وجهها سر ماضيها . ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على أثر لزوال الشباب ، ولا عن خبر لقدوم الهرم . وهى قليلة الاكتراث ، كثيرة الاناة ، قد جمعت فى طباعها بين اللين والجفاء ، فانهـا لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد ، وتشتد حتى يخافها المعاند . . كثيرة الصمت ، قليلة تزويق الكلام . تكره الفضول فى الحديث ، فلا تنطق الا بمقدار ، وتحب الصدق حبا بغض اليها الكذب فى الجد والمزاح

تلك هى صفات (سمبليس) وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسـان فضلها ، وقـد اشـتهرت بذلك فى عالم الـدين ، حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل فى كتاب بعث به الى رفيق له فقال :

انه ليجرى على لسان أكثرنا تقى ، وأبعدنا عن المظنة شىء من الكذب ، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجـدان ــ ولا يدخـل فى باب الامكان أن تسقط من (سمبليس) سقطة من هذا النوع ، فتكذب فى شىء كائنا ما كان ، فانها تعتقد أن الذى يمين فى الصغيرة ، لا يلبث أن يستطرد به جواد المين فى الكبيرة ، وتزعم أن الـكذب من أسماء الشيطان ، فهو عندها أحد اثنين : أما ابليس ، وأما الكذب

فلعل ذلك البياض الذى نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور فى سريرتها ، سريرة لو تمثلت لك أيها القارىء ، لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار

تلك هى الراهبـــة التى كانت تمرض فانتين وتبالغ فى

محاسنتها وهى التى أوصاها مادلين بالعناية بها ، وسألها عنها قبل الدخول فى هذه المرة

ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس ، فقالت حين لمحته وهى تغالب كبد الحمى ويغالبها : « أين كوزيت ؟ » . فقال وهو يبتسم : « انها قادمة على الأثر » ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة . وكانت لا تلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع فى نفسه من كلام الطبيب الذى كان ينذره بقرب حينها

◻

ولما قضى لبانته من النظر اليها انكفأالى حجرته ، فتناول قلمه ، وخط به فى ورقة بعض الأرقام ، ثم خرج وأخذ سمته الى دار رجل يكرى الخيل والعجلات فغشيه فى منزله وطلب اليه أن يكريه جوادا أصيلا ، فقال الرجل : « وما تصنع به ؟ » قال : « أطوى عليه عشرين فرسخا »

قال : « انها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودا فى عجلة ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وكم يكون ثواؤك بعد الوصول ؟ » . قال : « ربما تجشمت السفر فىاليوم التالى » . قال : « لتطوى فى الجيئة ما طويت فى الذهاب ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ان عندى جوادا كهمك أيها السيد وهو الأبلق الصغير . وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه انسان ، فما زلت به حتى رضت جماحه واسلست قياده فهو اليوم يسابق الافكار الى المقاصد ، ولكنه يرغب عن السرج ، وينزع الىالجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره الى جره »

قال مادلين : « أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط »

قال : « انه لينهب المسافة التى تريد قطعها نهبا ويطويها

خببا ، ولا يجد لذلك تعبا . على شريطة أن تنفس عنه فى اثناء ذلك بعض التنفيس ، وأن يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات ، وأن لا تحمل معك فى العجلة شيئا ثقيلا ودع رفق القائد الذى يقوده وعنايتك بالاشراف عليه . وأما أجره فى اليـــوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا. وذلك سواء فى السفر والاقامة»

قال مادلين : « قبلنا شرائطك ، فابعث به غدا عند تنفس الصباح » ثم ألقى اليــه ثلاث قطع من الذهب . وقال : « هاك أجره ليومين » وخرج من عنده ، ولكنه ما لبث أن عقب اليه وسأله قائلا : « كم تقدر ثمن العجلة والجواد اذا ساومك فيهما مساوم ؟ » . قال : « أتنوى ابتياعهما ؟ » . قال : « بل أريد أن أقف على الثمن خشية الطـوارق فى الطريق » . قال : « أربع وعشرون قطعة من الذهب » . قال : « هاكها » ثم خرج ولم يعقب ، ولبث صاحب الجواد فى مكانه يحز الودج أسفا على ما فاته من طلب المضاعفة فى الثمن ، وجعل يقول : « ليتنى طلبت اليــه أكثر من ذلك القدر ، فانى لأجد منه ريح الاضطرار ، ولـكنها فرصة عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة »

□

ذهب مادلين الى مخدعه فلبث فيــه بعض ســاعة ، ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان . وكان له صراف يقطن فى حجرة بأسفل مخدعه ، فلما انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق راسه قــد قطعت عليه نومه ، فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى اليه صوت وقع لأقدام تقبل ، وتدبر فى الحجرة التى فوقه ، فتبينها فاذا هى أقدام سيدة ، وما وقع له قبل الليلة أن يسمع فى حجرة مادلين حركة قبل الصباح ، فعجب لوقوع ذلك فى

مثل هذه الساعة من الليل ، وقال لعلها لأرق نزل به ، وزاد فى عجبه أن سمع صريرا بأدراج الدولاب ، فاستوى فى سريره قاعدا وطرد من عينيه ما علق بهما من كسل النعاس

ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذى يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر ، فاذا هى مرسلة من طاق الحجرة التى لسيده ، فأدمن اليها النظر ، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كأنما كان مصدر انبعاثها نارا تشب لا سراجا يضىء

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراءى فيها خيال ، فعلم أن زجاج النافذة التى باتت تنبعث منها كان مرفوعا ، ولما تحقق ذلك أهوى برأسه الى الوسادة ، وجعل يعالج النوم من جديد

فاستغرق هزيعا من الليل ، ثم تنبه فاذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون ، فأيقن فى هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج

واليك أيها القارىء ما وقع منذ الليلة فى حجرة مادلين . وما لنا لا نقول فى حجرة (جان فالجان) . وما غاب عنك أننا لا نعنى بهذين العلمين الا مسمى واحدا

كلمة فى سريرة الانسان

نظرنا قبل اليوم نظرة فى مرآة تلك السريرة ثم صورنا للبصر ما لمحته عين البصيرة . وها نحن أولاء ننظر فيها النظرة الثانية ، وان كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد

يقف أحدكم على شاطىء البحر المحيط ، فتكبره عينه ؛ وتعظمه نفسه فاذا انتقل بنظره الى السماء أصغرت عينه البحر وأكبرت نفسه السماء

وانه ليتضاءل فى عينه المشهدان ، ويصغر فى نفسه الكونان اذا ما نظر بعين الوجدان فى مرآة سريرة الانسان ، فانك لا تجد مشهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الافهام كذلك المشهد ، فهو اذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر واذا أدجى أعيت ظلمته الفكر ، وقل أن تستقر فيه عين البصيرة على شىء تلم بكنهه ، أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه

فلو أنك حاولت وصفا لأدنى سرائر البشر ، وعمدت فى ذلك الى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لاعوزك الوصف وأعجزك الوصول . اللهم الا اذا نزعت الى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم الى أوان العدم ، وأذبت الجميع فى بودقة الفكر ، ثم استللت منها سبيكة شعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس ، ويجلو رونقها صداء الخواطر

فالسريرة هي ميدان الشهوات ، ومهبط المخزيات ، بل قارورة الغرور ، وتنور الأحلام ، وموطن المطامع ، ومسرح الأباطيل ، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكر والانشغال ، ثم نظرت فى صورته وكنت ممن يكشف لهم الغطاء عمـا يجول فى قرارة النفس ، وخلجان الفؤاد ، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربا قائمة وخيالات مشتبكة ؟!

نعم انه ليتمثل لعينك فى ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتى ذلك الحيزوم ما سطره(هومير) وذكره ميلتون، وتوهمه (دانتى) . ولقد طال بنا الوقوف أيها القارىء على ذلك المشـهد العظيم ، ونحن نتهيب طرقه ونكبر الدخول فيه ، ولكنا سنشد منا ، ونقدم على فتحه ، وموعدنا الجزء الثانى ان شاء الله تعالى

الجزء الثاني

الفصل الثالث

عاصفة تحت جمجمة
أو
« فورة »

قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر (جان فالجان) منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال(١) هذا الرجل الى رجل آخر ، وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها فاختطفته الى المعبود . وأخرجته من مسلاخ(٢) الشرة(٣) والضغينة ، وأسكنته فى اهاب من الفضيلة

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين(٤) . ولعله أبقى عليهما ذكرة لذلك الصنيع

وجعل ينسل فى سر(٥) من الناس من قرية الى قرية حتى مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان والقى عصاه بقرية (منترأى سيرمير) وأدر الله له أخلاف (٦) الرزق فاثرى ، ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير . فكان كلما بضع (٧) الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة . ولقد تكفلت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات (٨) الشطر الاول

---

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسى معرب (٥) اى خفاء
(٦) الشدى للمراة والاطباء للكلبة والاخلاف للناقة (٧) قطع (٨) الحوبة الذنب

وكان رأســه مضطربا لفكرتين لا ثالثة لهما : أن يخفى اسمه وأن يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع الى الخالق . وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجا حتى حالتا الى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على ارادته، فاستقرتا فى قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجـدانه ، فهما اللتـــان دعتـــاه الى الانزواء فلبى ، والى البر فمضى ، والى التقشف فأطاع

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الأولى الى أمر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن ايثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وان جرت الى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره فى اختفاء أمره

ألم تر اليه كيف غامر بنفسـه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) (وجافير) يلقى عليه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وان طارت حوله فى ذلك الشبهات

فقد قام بنفسـه أن أول فرض عليه انما يجب القيام به لغير شخصه . على أنه لم يشهد مشهدا لهذا العراك كان أشد هولا وأعظم مراسا من ذلك الذى مر به حين دخل عليه (جافير) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى أثناء النسيان، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار ، وهجم عليه أمر لا قبل له به ، فمرت به تلك الهزات التى تؤذن بفورة النفس، فانحنى انحنـــاء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندى يتهيأ للاقتحـــام . وهم وهو ينصت لـ (جافير) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير الى ذلك السجن الذى أودعوه (جان ماتيو) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة

ولو كان ممن تزكو (١) عنده العوارف لزكت عنده عارفة

---

(١) زكت العارفة أى أثمر الجميل

العـابد ، ولغيرت منـه تلك السنون التى طواها بين الزهد والتوبة ، ولغبر (١) يمشي قدما بقدم مطمئنة وصدر مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة امامه فهناك عند قرارها قد القيت مفاتيح الجنة التى كان ينشدها

نعم كان الأخلق به أن يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه. واليك ما كان يجول فى نواحى نفسه

غمره عند الوهلة الأولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب (٢) بحلمه حتى اذا ثاب اليه اضمر فى نفسه وهو ينظر الى (جافير) أن يتلوم (٢) بعض التلوم فى الحكم على مصيره

ولبث سراة (٤) يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفى باطنه من الجزع صلاء (٥) فلم يفكر فى ذات غيبه (٦) ولا فى الأخذ بالحيطة مما عسى ان ينزل به من العوادى . ولا بدع فقد تخونه الحزم وقرعه (جافير) بقارعة اطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته انه أصبح تحت كلكل كارثة لا يدرى متى تفلته

□

انكفأ الى حجرة (فانتين) يعودها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال الجلوس ، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمده . على أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيا ولم يستشر عزما ، فقد مرت به الفكر أبابيل (٧) وهو لفرط خياله لا يكاد يميز بين صورها

وما أدرى أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى الا أريم (٨) مكانى فأرقب مواقع القضاء فى

---

(١) مضى (٢) صاح (٣) يتأنى (٤) طول (٥) الصلاء النار
(٦) ذات الغيب المستقبل (٧) جماعات (٨) ابرح

الحادث وانا وادع لا تسمو الى الخطوب ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسست الشر ركبت عليهـا النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه اصابة مقدرة . ثم دخـل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا الى نفسه وانعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأى فتعاظمه الأمر واخـذت عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة

ساورته المخاوف وفاعته (١) الأوهام ، فقام الى البـاب فاستوثق منه والى المزلاج فأثبته حتى ظن انه فى مأمن من الطارق والطارىء ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبا للمزيد فى الأمن .وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن الى النور ثم قال فى نفسه الا ازال مرئيا (عن أى عين ياترى كان يريد أن يتوارى) ؟

يا ويله ! ان ذلك الذى كان يجـد فى الفرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام ما زال معـه فى حجرة واحـدة

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن انه كان فى عزلة وأمن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينـه وبين ما يخشى . فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع (٢) الفؤاد ثم عصب راسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت امامه وانشأ يحدث نفسه :

ــ أين أنا ؟ وما عسى أن يكون ما أنا فيه ؟ ترى هل كذبتنى العين حين رأت (جافير) ؟ وهل خاننى السمع حين أفرغ فيه اسم ذلك الرجل (جان متيو) ؟ أتراه يشبهنى الى حد أن أخذوه بى ، فويل لى . لقد كنت بالأمس آمنا فى سربى ، وأرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله

فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس

(١) فعلت فعل الافعى (٢) غير متفرق الفؤاد

الذي ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت فى رأسه كالأمواج حتى انه ليدافعها عنه باليدين . وكان يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له بردا على قلبه ، ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض

وكاد يلتهب رأسه فقام الى النافذة ففتحها ونظر الى السماء ، فاذا بها ضريرة النجم(١) ساقطة النواحى(٢) فعاد وارتمى على مقعده

ومر به قطع من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت برأسه صور مبهمة أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت اليها تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة الْمت ببعض اطرافها فعاد الى نفسه بعض الشىء ، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل اليها انما هى من صنع يده ـ حال حقيقة باللوم لا يلابسها المرىء (٣) ولا يستقر عليها العيوف

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه انه على زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئا مذكورا ، اللهم الا ذلك الثقب الذى ثقبه ووأد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ اليها شعاع من الذكرى

فكان اذا خطر له أن سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف انفاسه فى ليله ، واغرى به سهادا تقض (٤) عليه معه المضاجع ؛ وتطارحه الوساوس . ولطالما كان يقول لنفسه ان هذا اليوم اذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ؛ حتى انه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها (٥) بالتقوى وتعهدها بالاحسان

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل ارجاء نفسه . فلو أن قائلا قال له : ان هذا اليوم لا بد آت وان تلك الكلمة (جان فالجان) لا بد أن تثب من مكمنها ، وتترآى أمامك

---

(١) يحجبها السحاب (٢) شديدة الظلمة (٣) ذو المروءة
(٤) تمتلىء عليه قضا وقضيضا ، أى حصى (٥) ربها بمعنى رباها

فى هيكل نورانى يهتك ســـــتار الظلمة الذى أســدلته على نفسك . فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك أن تسمع ذلك الاسم فانه سيرفع منك ، ولا يهولنك أن ترى ذلك النور فانه سيزيد فى الظلمة التى تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فانه سيكون أكتم لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فانه سيصبح أدعم لبنائك ، فاكشف عن حياتك تبلغ مناك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف (جان فالجان) وقفة تخرج منها أنبل نفسا ، وانبه ذكرا واجمل امرا

لو أن قائلا قال له ذلك ، لنأى عنـــه بجانبه ، ولظن أنه يعالج المستحيل . على أن الذى كان يظنـــه داخلا فى باب الاستحالة قد دخل فى باب الامكان ، وجرت به الأقدار فوقع

أخذ حلمه يتكشف رويدا رويدا وأخـــذ هو يزداد علما بحقيقة أمره

خيل اليــــه انه قد أفاق من خفقة ـــ وما أدرى من اى خفقة أفاق ـــ وأنه قد راى نفسه ينزلق فى جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف(١) هاوية ، وانه قد حاول ان ينحرف عنها ، فأثبته الخوف وقيده الوهم . وأنه قد راى تحت راية ذلك الليل خلقـــا(٢) اراد أن يتبينه فتنكرت له معارفه حتى أنكره ، فألقى فى روعه أن الاقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته (جان فالجان) فأخذته به وساقته ظلما الى تلك الهاوية التى لم يكن لها بد من أحد رجلين : اما هو، واما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقـــاومة وترك الأقـــدار تجرى على أذلالهـــا(٣)

ولما تجلى له نور الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول ان مكانى فى السجن لا يزال بحمد الله خاليا يطالعنى منذ ذهبت بورقة ذلك الغلام ، وانى لأشعر كأن قوة باطنـــة تسوقنى اليه فهو مدركى وان أمعنت فى الهرب ، ولشد ما يرمضنى(٤) أن يقيموا فيه بديلا منى ، وأن هو الا عاثر قد رمى به نحس

(١) اى حافة (٢) مخلوقا (٣) تجرى فى أعنتها (٤) يقيمنى على الرمضاء

طالعه فى أيديهم ، فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمنا فى سربى ، فأنا مقيم هناك فى لباس (جان ماتيو) وأنا مقيم هنــا فى لباس (مادلين) ولكن أيسعنى فى مروءتى أن أترك هذا البائس يدفن فى السجن كما تدفن التوابيت دفنــا لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟. أم كيف يجمل بى أن أتدلى هنا فى النعم،وهو يتدلى هناك فى النقم؟!

وعلى أثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف حركة لا تمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات

فقد اختلجت سريرته اختلاجا بعث ما كان كامنــا فى فؤاده من الهواجس . وقع ذلك على اثر مزيج قــد جمع فى نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هى احــدى ضحكات السرائر

قام بعد ذلك الى المصباح فأضاءه من جديد وطرح عن منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه ما لى اراني على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه ؟. وكنت أفرق(١) من طريق واحد طالمــا قدرت أن تدهمنى منــه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح (جافير)لا يجد الى سبيلا وأصبحت فى مأمن مــن شر ذلك الرجــل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على أثرى حتى كاد يكشف عن أمرى ـ على أنها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى ، وليــدعنى أستروح روائح الأمن ، فقد طال عهــدى بها . وليقبض على (جان فالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم اكن عنه مسئولا ، فحسبى ما كابدت من ألم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيا رآنى الساعة لمــا شك فى أنى قريب عهد بالافاقة من سقم ، او بالافلات من براثن حادث

---

(١) اخــاف

واذا تأنقت الأقدار في مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها، واني للمرء أن يدفع القدر عن غيره اذا هو اعجزه ان يدفعه عن نفسه ، واني لا أرى مبررا لما كنت فيه من الجزع ، فان الأمل الذي كنت أتنسمه طوال السنين ، والشيء الذي كان يملأ على أحلامي قد ظفرت به ، ذلك هو الأمن وهو بغيتي، فمالي لا أشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح(١) لي وتقبل مني ، وأراد أن أجري في طريقي ، فقد اخذت نفسي بصحبة الفضيلة ، ورددتها الى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت ، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت اليه جملة ما مر بي ، فأفرغ في أذني كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن فذلك مشيئة الله . صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجان سريرته ، وبعد ان كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكر

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى في مخدعه وما شاع في نفسه سرور ، ولا قر له قرار كما كاد يتوقع أن يكون . وما هي الا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود الى شاطئه ، استطاع أن يرد الفكر عن العود الى مناطه . وعلة البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المد والجزر . وعلة الفكر يعرفها المذنب وهي الندم . فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط !

نعم عاد الى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هو المناجي . وكان هو المصغي . وكم حاول الا يكونهما . ولكن قوة باطنة ساقته سوقا ، والحت عليه بوحيها : أن فكر في ذلك الذي سيق الى الموت قبل اليوم بألفي سنة !

---

(١) أي غفر لي

وقبل ان نجرى بك شوطا بعيدا أيها القارىء ، يجمل بك ان تصبر قليلا على الاسهاب فى أمر لم نر بدا من بسطه :

من المألوف أن يناجى المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يطعم(١) تلك المناجاة ـ وانها لسر من أجمل الأسرار واخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر الى السريرة ، ثم ترده السريرة الى الفكر . فاذا علمت هذا حلا لك ان تفهم الأسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا : « ثم قال ـ ثم صاح ـ قال لنفسه ـ كلم نفسه ـ صاح فى باطنه » . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة فى الباطن يتناول الكلام فيها كل ما فى الجسم من عضو وجانحة غير الفم

تلك حقيقة من حقائق النفس وان لم يقع عليها الحس أو يدركها اللمس

تساءل أين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذى اعتزمه ؟ فأقر فى نفسه ان كل ما أصر عليه انما هو باطل وأن الاستسلام للقدر فى هذا الموطن لمن احدى الكبر وكبر عليه أن يدع ذلك القدر فى وهمه ، وأولئك الناس فى ضلالتهم ، وهاله ان يجمد عن الحق وهم فى الباطل يتدفقون . ورسخ فى اعتقاده أن السكوت فى مثل هذه المواطن انما هو اشتراك فى الاثم ، وأن الاحجام عن المفاداة ، خليق أن ينزل به الى أحط منازل الآثام

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هذه المرارة ، فتزلزلت نيته التى نواها وجلس الى نفسه يحاسبها وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول : « ان لكل حى غاية يعمل على ادراك مداها . وقد كانت لى غاية ارى انى قد بلغتها ، فلم أخفق مرة فى التنكر وخدعة الشرطة . ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة . أمن أجلها يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيرا لى أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فانجو

(١) يذق

بالروح لا بالجسد ، وأنزل منازل الأبرار . فلن أعق نفسي بعقوقي ذلك العابد . فمالي أفتح باب الماضي على مصراعيه وقد أمرني العابد أن أوصده ؟ فسواة لي . لقد أصبحت لصا تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فانهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته

« أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته وسللت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس وما كان القاتل بدوني في قبح الصنيع ، على أني لم أحسن القتلة ، فهو اليوم في سجنه ميت حي

« ذلك لعمري أبشع ألوان الاجرام . فمالي لا أفتديه بنفسي فأسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت (جان فالجان) المجرم الأثيم

« فاذا طبت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجا لا يعقبه رجوع . فاذا فررت منه الى السجن ، فانما أفر من جحيم الروح الى جحيم الجسد ، وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عني ما قدمته بين يدي آخرتي من عمل دنياي ، اذا ما عدل بي طبعي الى الخور فحال بيني وبين ما اعتزمته

« وهذا العابد لا افتأ أراه كأنه حي وكأنه مني أدنى(١) ظلام ينهبني بنظره نهبا . وكأنه يؤثر أن يراني في لباس (جان فالجان) وان كان من نسج الاجرام على أن يراني في لباس (مادلين) وان كان من نسج التقوى ، واذا جاز على الناس تنكري فلن يجوز عليه

« فما نظروا الا الى الوجه وما نظر الا الى الضمير ، فقد استحال الا الذهاب الى (أراس) وانقاذ ذلك المكذوب عليه،

---

(١) أقرب شيء

ولئن أقدمت على ذلك لأقدمن على ما يحجم عنه الناس ــ تلك هى المفاداة وان عزت على النفس ، وذلك هو النصر وان كان أليما . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر الا أكون نقيا فى نظر الله حتى أكون دنسا فى نظر الناس » !

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام الى كتبه فنسقها والى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من التجار ، فألقى بها فى النار ثم كتب كتابا وغلفه

ولو أن أحدا كان معه فى الحجرة لاستطاع ان يقرأ هذا العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام بعد ذلك الى خزانة اسراره ، فأزعج منها درجا التقط منه محفظة

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ، ولرأيت انه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع راسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سر أو استجلاء غامض

ضم اليه الكتاب الذى كتبه ، والمحفظة التى التقطها وعاد الى السير فى مخدعه وفكره لم يبرح راسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقل ببصره راى أمامه لوح المقدور وفيه سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فامط عنك اللثام وانتسب

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته وقد سكنتا فى هيكلين متباينين أخذا يدنوان منه تحت الليل (وما نسى القارىء أن أولاهما لم تكن غير التنكر وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع الى الخالق) فجعل يضاهى بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص الى الحكم بأن الأولى انما ركبت من الأثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهى اذن من وحى الشيطان . وأن الثانية انما صورت من الاحتساب وحب الآجلة فهى اذن من وحى السماء . ورأى هذه وهى

(١) حب الذات (٢) حب الدنيا

تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرزق التمييز بين نزعة الشر ونزعة الخير

ثم اشتبكتا أمامه فى نزال فجعل يفكر فى أمرهما . وانه لكذلك اذ نظر اليهما بعين عقله ، فاذا بهما قد أخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق . وفى هذه اللمحة احس فى باطنــه وفى ذلك الملكوت النفسى الذى لا يعرف مداه نضـالا قد قام بين ملك من الملائكة وشيطـان من الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يُوتى(١) اليــه أنه فى حراسة ذلك الملك فشد (٢) منه أن رآه من الظـــاهرين (٣) ومر كأن لم يكن ذلك الجازع ، وأيقن أن السريرة والقدر أوفيا على ساعة الابرام فى أمره

فقال فى نفسـه : لقد أوضح العابد سبيلى فى الطور الاول من حياتى الجديدة . وها هو ذا (جان ماتيو) يوضحه لى فى طورها الأخير

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هدأة فمرت برأسه الف فكرة وكلها تصيح به أن أمض فى عزيمتك ولكنه لم ينج فى أثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : اراني متعجلا فى الأمر ، وما كان (جان ماتيو) ممن يعتد بهم ، ان هو الا لص من السارقين

ثم عاد فقال لنفسه : « اذا كان هذا الرجل من السارقين كما يزعمون ، فان عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه أن يطوى فيه حياته ؟ فلولا أنهم أخذوه بى وحل به شؤم أسمى الذى لبسه كارها ، لما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا أن علم أن له سوالف غير محمودة ، وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت »

ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهرون هـذه البطولة بالعفو عنـه . دع تقديرهم لحسن سيرته

(١) يخيل اليه (٢) قواه (٣) الغالبين

وما خلف وراءه من الخيرات فى هذا البلد. ولكن هذا الخاطر لم يلبث أن محته ابتسامة مرة قد خطفت على شفتيه ، فقد قال لنفسه على الأثر :

ـ ان قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمل التاويل فهو سجن الأبد

ثم نفض عنــه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الأرض واتجــه الى السماء يستنزل المعـونة والعزاء . وقال :

« سبيلى أن اقوم بالواجب فلست أتوقع شرا مما أنا فيه . فهبنى تركت الأقدار تجرى على اذلالها ، ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التى أعلم دون غيرى انها متبلة(١) بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بامثال تلك النعم اذا ما علقت بهـــا اللعنة ؟ على أننى اذا طبت نفسا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدا مغلولا فى لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى !

« وهذا أمر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لأنقض فى الأرض ما أبرم فى الســماء .. فأنا اليــوم بين امرين : اما فضيلة تحتها عار ، واما عار تحته فضيلة »

وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس ، فما نهنهت من عزمه ولا كفت من غربه . ولكنها كدت ذهنه وأفظعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وانه لكذلك اذ آذنت ساعة البيعة (الكنيسة) بانتصاف الليل ، واجابتها ساعة باحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنتى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى بين جرس(٢) الجرسين فذكر على الأثر انه رأى عند احــد باعة الفلزات(٣) جرسا عتيقا معروضا للبيع وعليــه اسم

(١) متبلة ـ بتشديد الباء ـ أى مخلوطة بالجريمة ـ من تبل الطعام ـ بتشديد الباء ـ جعل فيه التابل الذى يطيبه (٢) الجرس صوت يجرس (٣) الخردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد

(انطون البين)

ثم أحس البرد فزاد فى نار المدفأة ، وغاب عنه ان يغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد وحاول جهده أن يذكر ما كان يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان، ولكنه لم ينشب أن خرج منه الى الذكر فقال : « لقد ذكرت انى عقدت النية على الذهاب واماطة اللثام » . وخطرت له ذكرى (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حوله وجوه المناظر . وصاح : « ويل لى ! لقد أعمانى حب الأثرة فلم أفكر فى غير نفسى ، وأرانى قد قصرت همتى على امرين اما التنكر وفيه نجاة الجسد ، واما الظهور وفيه نجاة الروح . ولقد خاصمت نفسى الى نفسى ، فكنت قاضيا قد جمع بين العزة والهون ، وكنت مجرما قد ضم بين النبل والخسة . وهذا لعمر الله لون من الوان الأثرة ولو ملت الى الايثار لبدأت بغيرى

« فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى الى السجن وخلوا سبيل (جان ماتيو) ، فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى أغاثه الله بى ، فاقمت فيه المصانع ، وأيقظت الصناعة وشيدت دورا للعاملين وأخرى للعاملات ، وكفلت الايتام وحبست الأرزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور واللحم من القدر .. فهم يستمدون منى حياتهم ، وأنا محور تجارتهم وموئل عفاتهم ومثابة(١) ارزاقهم وبى أخصب عيشهم واخضرت أعوادهم، ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا !.

« دع تلك البائسة المضعوفة التى أصبحت هامة(٢) اليوم أو غد بعد أن ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء طهرها ، وأنا الذى أخرجها عن أفق العفة ، وكنت أذنا للسعاية بها

---

(١) محل (٢) يقال فلان أصبح هامة اليوم اى حضر أجله

فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل ، فاكلت بثدييها وكنت لها من الظالمين

« وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الأم على نجاتهـا فما أصنع بعهدى معهـا اذا نزحت اليـوم ، فماتت الأم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القـدر فتلقفها الغير . فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتى اللبث والذهاب » !

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة أعقبته رعدة مرت كأن لم تكن. فتمكن من نفسه وقال : « ليذهب ذلك الرجل الى السجن فقد سرق . ومالى أحسن به الظن فأدفع عنـه الاثم ، فلأمكثن هنـا وأثمر هذا المال ، فاذا أحسنت عليه القيام ولد لى فى مدى عشر سنين الفى ألف انفقها فى وجوه البر ، وليس بى أن أعمل لنفسى ، فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فاذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة(١) قرية واطلع العراء ضيعة(٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ، وتسعد الأسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور،وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها

« لقد كنت محمقا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك الا الأثرة ، ولو اننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل ، وانها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى

« أأستحيى نفسا أثيمة ، واميت انفسا زكية ، واتوقع على هذا أجرا ؟. بسل(٣) على أن تموت (فانتين) وهى على ظمأ الى رؤية طفلتها ، وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أما

« كل ذلك من أجل مجرم لا اراه الا خليقا بما حل به من العقـاب ، ولا أحسب الا أنه رب سـوالف فى السـوء ،

---

(١) عزبة (٢) الأرض المزرعة أو الأفدنة (٣) حـرام

فلا يضيره ان يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجينا كان او طليقا

« ولو ان لتلك الطفلة كافلا غيرى لما حزبنى الأمر . فاذا اجرمت باللبث ههنا ، فعلى اجرامى ، وان هى الا غمزات من الندم أجد لها مسا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيرها ففيه نعيم لأناس ليس لهم دونى من ولى . وهاأنذا وطنت النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العـذاب . ذلك هو عين الاحتساب ..! »

□

ثم طفق يمشى فى مخدعه وقد تبسطت فى هذه المرة نفسه ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه

انما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس لا يلتقط الا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل ـ خيـل اليـه أنه هبط الى تلك الاغوار فسلك فى أشدها حلوكة وأبعدها مدى ، ثم جعل يتحسس بيديه فى تلك الدجية(١) حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق ، وانه ليقبض عليها اذ تفجر منها نور كاد يعشى بصره ، فصاح : « ها أنذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى يدى مفتاح طلسمها

« فأنا (مندلين) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرنى أن أكون (جان فالجان) . ومالى أقول جان فالجان وأنا لا أعرف خلقا قد ركب عليه هـذا الاسم ، فان كان حيـا كما يزعمون فليتول أمر نفسه ولا أحسب هـذا الاسم الا طائر شؤم له سبحات تحت الليل ، فاذا عن له راس قد انتواه القدر وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به »

---

(١) مفرد دجى

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال : « لقد رفبت عنى هـذه العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها »
ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :
« لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الأمر ، واستحال غير الاقدام ، على انى لا أزال ارى آصرة من الولد تربطنى بهذا الاسم فمن الكيس قطعها . وأشياء فى هـذا المخدع ربما وقفتهم على اثرى ومهدت السبيل للشك فى امرى .. وهن وان كن صوامت فانهن أفصح عند الشهادة لسانا من الناطقين ، فمن خطل الراى أن ابقى عليهن »
ثم ضرب بيده الى جيبه فأخرج كيسا التقط منه مفتاحا أولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلكم خدع مكانه عين الناظر لكمونه بين خطوط دكناء رسمت متناسبة الأوضاع على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر . وكان فى ذلك المخبأ اهدام بالية ومعطف أزرق وسراويل(١) رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد . ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر بمدينة (دنى) سنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربا من ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبا فى ذكرى العابد
ثم رمى البـاب بنظرة عجلى كأنه يخشى الغرة برغم الوثوق من الايصاد ، وأهوى كاللمح على ذلك المتاع دون ان يسعده بنظرة منه فاحتضنه ، والقى به فى النار ، ذلك المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الابقاء عليه
وما هى الا لمحة حتى أشرق المكان بنور احمر رقصت أشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم ان النار قد أتت على متاعه الا عصاه فقد بقى فيها ذماء (٢) دل عليه شرر كانت لا تزال ترمى به الى وسط الحجرة

---

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات (٢) بقية

وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ، وظهر على أثره فى الموقد شيء لماع لو دانيته لرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضية ـ قطعة الفلام (سافويار) ووقع نظره على الشمعدانين وقد أضاءتهما النار فانعكس لهما على الموقد ما أدرى أى لون من ألوان الأشعة ، فصاح وهذا أيضا لا معناة (١) للابقاء عليهما ، ثم ألحقهما بمتاعه فلم يلبثا أن صهرا وحالا الى سبيكة منكرة ـ ثم خطا الى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال : « نعم الدفء »!

ولم يكد يحمد مغبة أمره حتى شعر كأن صوتا فى داخله يصيح به : «جان فالجان» ! » . فقف(٢) شعر رأسه واستطير فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم أخذ يتسمع واذا به يناديه : « هنيئا لك لقد أكملت صنعك ، أتلفت الشمعدانين ـ نجوت من ألم الذكرى ـ نسيت العابد ـ نسيت معه الماضى ـ سقت (جان ماتيو) الى الهلاك ـ هنيئا لك لقد نجوت ـ فكن شيخا وقورا ودع اسمك يحمل البلاء الى غيرك فيمضى فداء لك ـ كن عريض الجاه خصب الفناء ـ عل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من الأيتام . ولا تنس وأنت مستقر فى الذروة من الجاه ومتدل فى الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذى يلبس فى السجن لباسك ويخطر فى قيودك واغلالك ، فليهنئك ما قدمت يداك»

فتفصد جبينه عرقا ووقف ساهم الوجه سادر البصر قد شدت أهدابه الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت لا ينقطع عن مناداته : « جان فالجان ! انك لا تعدم أن ترى حولك قنابل (٣) من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء عليك ، فلا تنس وأنت فى مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض

(١) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه (٢) قف ـ بتشديد الفاء ـ شعر رأسه أى وقف (٣) جماعات

من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتحجب فى طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج الى السماء فتمسى ومالك غير اللعنة من خلاق (١) ولبئس عقبى الدار »

وأخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى أذنه يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتى مسمعيه، وبعد أن كان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذى يكلمه لم يكن غير حى من الأحياء تحتويه الحجرة فرمى بصره يطلبه فى أركانها ، وصاح وهو لا يعى : « من المتكلم ؟ » . ثم ضحك ضحكة من به مس ــ وقال : « لشد ما وهمت فليس هنا غيرى »

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى كان فيها لم يكن ممن تقع عليه العيون ــ ثم عاود المشى بخطى رتيبة (٢) تبعث الأسى وتثير الشجن فكانت تقطع عليه سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غراره (٣) فيثب من فراشه مروعا مذعورا

على أن هذا المشى كان يروح عنه ويشمله فى آن . وقد تدفع الملمات صاحبها الى الحركة رجاء أن يصيب فى طريقه من يشد منه برأى أو ينفس عنه بنصح

وأجازت به آنة نكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولا أمام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما ، وبدا له قبح ما أضمر فأيقن أن لا خير فى الأولى ولا أجر فى الثانية. وقال : « ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بجان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بى وأنظرنى ههنا حتى مكنت لنفسى فملكت يومى وبلغت من الثروة ما بلغت » . ثم التفتت نفسه التفاتة الى حاضره وأخرى الى ماضيه وقال : « أكشف عن نفسى » .. قالها ونفسه تكاد تسيل

---

(١) أى نصيب (٢) الشىء الرتيب الذى يقع متشابها على وتيرة واحدة (٣) الغرار النوم القليل

جزعا ـ «سلام على عيش لبسته مضطرا وخلعته كارها. فلقد آن للنفس أن تودع ما فيه ، فتستبدل(١) الاذلال بالاجلال والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن أن تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند اقبال الربيع في وشيه البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل فى القيود بالتنقل بين المروج والنجود (٢) وللأنف أن يستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة سجن الوحدة والتقلب فى ألوان الشدة ، وفى ذمة الله أيتها الدار فما كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك . وأنت أيها الخادم العجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك . وقد آن لى وأنا العاثر المجدود أن أستدبر عيشا أخضر ، لأستقبل عيشا أغبر ، وألبس رداء أحمر ، نسجته يد البلاء الأكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفرا . أفى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين أرد الى السجن وأنا أعلم الناس بما فيه من عذاب وهوان ؟ الا انى لو كنت فى عهد الشباب لاضطلعت بخطبه . أما وقد أخذت منى الأيام فلا طوق على مصابرة الشدائد

« ينهرنى الحرس ، أخاطب (٣) بالكاف ، تأخذنى سياط السجانين ، دع عصا كبيرهم : أمسى عارى القدمين فى حذاء من الحديد . أمد ساقى لمطرقة القين (٤) الكشاف فى الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن أغلالها ، أصبح هدفا لأعين

---

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائما على المتروك قال الله تعالى أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير

فى هذه الصفحة وحدها قد اضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول

(٢) جمع نجد أى المرتفع من الأرض

(٣) علامة الاحتقار (٤) الحداد

الزوار ، فكلما مر بي أحدهم قالوا : هذا هو جان فالجان الشهير الذي كان شيخا (لمنتراي سيرمير)

« فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح في غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بعذابنـا ، فندخل اثنين اثنين بين أيد تعمل في أقفيتنا وسياط تقدح فيظهورنا فما أمرها من حياة . اني أكاد أتهم القدر . اتراه تجرد من الروحانية وانغمس في البشرية فحل فيهيكل شرير حضرت في استنباط الأذى قريحته وأقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! »

ثم رجع الى هواجسه الاولى ووقف عند تلكالعقدة التي أعياه حلها : أيقيم هنا فيصبح شيطانا أحلته الجنة أميذهب الى هناك فيصبح ملكا أحله السعير ، فتأوه وقال : « ربي كيف الخلاص ؟ »

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الألم وأخـذ فكره يختلط عليه ، فمر به ما ادرى اي صنوف البله ولعله أثر منآثار مواقع اليأس فيالنفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة (رومان فيل) ، فقال : « ترى متى سمعت هذه الكلمة ؟ . . سمعتها منذ عهد في أغنية صغيرة تقع في بيتين من الشعر واني لأحسب (رومان فيل) اسما لغاب صغير بضاحية من ضواحي باريس يؤمه العشاق من الشباب في شهر أبريل ، يجنون زهرات الزنبق »

وسرى اضطراب باطنه اليظاهره فجعل يترنح في مشيته كأنه وليـد قد خرج من الحبـو الى المشي ، فترك يمشي وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح أشد الكفاح ليثوب اليه رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى اذا تمكن من نفسه او كاد ، اراد أن يعزم العزمة الأخيرة . اما الـكشف عن نفسه واما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز

وطاحت هواجسه بثمرات فكره وأخذت تصوراته المبهمة تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعـاقب الى دخان تذهب به

الرياح ، فأحس انه أنى وقف أو وقفته الضرورة فان بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، أما احتضار سعادته ، واما احتضار فضيلته ، وعاوده التردد فعاد الى موقفه الاول

هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من الكرب والبلاء

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التى كانت تعبث بها هوج(١) رياح الأبد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك السر الغامض الذى أعجز العقول ادراك كنهه ، ذلك الذى حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا الورى ، يعاف هو أيضا شرب الكأس المرهوبة التى طالما نحاها عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند وردها النفوس

(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة .

الفصل الرابع

ألوان الألم في النوم

أقبل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسه فارتمى على مقعد . وما هو الا أن احتواه حتى غط فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى التى تمثل للمهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية فى تلوين وجوه الألم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكد يفيق حتى خط بيده ما كان مركوزا فى نفسه من وحى ذلك الكابوس .

وليس من الأمانة أن نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر ــ ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفا

الرؤيا

رأيت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأننى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن أخى كان يماشينى فى ذلك القفر ، ذلك الأخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا فى حديث جر الى ذكر جارة كانت لنا فى ذلك العهد ــ كانت تعمل أمام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث فى ذلك القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من

تلك النافذة .. وهفا بنا فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد أصلع الرأس جميعه ، حتى ان الناظر الى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده مخصرة فى لدونة فرع الكرم ، وفى ثقل عود الحديد ـ هفا بنا ولم يسلم ..!

فقال لى أخى : « اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف . وكان طريقا سماؤه فى لون ارضه لا يرى السالك فيه أجمة ولا خضراء ، وانى لأحدثه وانا لاه عنه بما أنا فيه ، اذا به قد راغ روغة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت (١) عليها انها قرية (رومانفيل) فركبت اول طريق لقينى فاذا به قفر ، عدلت عنه الى ثان فلما بلغت الزاوية التى تربطه بأخيه اذا أنا برجل قائم عند حائط ، فسألته عن اسم القرية التى احتلتنى فلم ينعم بالجواب . وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فاذا أنا برجل قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ، وكان للدار بستان دلفت اليه فاذا أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت على وجهى فى تلك القرية التى أقفرت من الانس سبلها وفتحت أبواب دورها فما رمانى الطريق بانسى ولا أحسست حركة فى دار من تلك الدور ـ غير أنى كنت ارى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلا قائما قد أخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت الى المزارع ، فلم أكد أنقل فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، واذا بكل أولئك الذين رأيتهم قياما قد ترسموا أثرى ، ورأيت كأنهم يمشون الهوينى ، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسع منى خطى وأخف حركة ، وما هى الا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى وكانوا جميعا فى لون التراب ، فسألنى أحدهم

(١) اى تظنيت ، خمنت ، حزرت

واحسبه أول رجل لقيته عند هبوطي القرية : « أين تمضي ويلك ــ أولست قد مت من عهد بعيد ؟ » . وبينا أتهيأ الجواب اذا بهم قد اختفوا جميعا

▭

ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال ليلا فقام الى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فاذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق

وبينا هو ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتا جافيا وضجة عنيفة على وجه الارض . فخفض بصره فرأى نجمين احمرين يشعان أشعة تترامى فى جوف ذلك الليل ، وكان لا يزال فى بقايا خياله ــ فقال : « دفعت الليلة الى عجائب ، ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا ؟ » . ثم قامت ضجة ثانية كان من أثرها فى نفسه أن عاد الى صوابه فنظر نظرة أخرى ، فاذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شد اليها جواد أبيض ، فسأل نفسه : « لأمر ما بكرت هذه العجلة ! »

وفوجىء بطرق على الباب ــ فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن : « من الطارق ؟ » فكان الجواب : « تلك أنا يا سيدى الشيخ » فعرف صوت خادمه العجوز ، فقال : « وما تريدين ؟ » . فقالت : « انها الساعة الخامسة يا سيدى » . قال : « وما شأني بذلك ؟ » . قالت : « لقد حضرت العجلة » . قال : « أية عجلة ؟ » . قالت : « تلك التى تقدم سيدى بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك » . قال : « ويحك اى سائق ؟ » . قالت : « سائق السيد سكوفير » ، وما كادت تذكر هذا

الاسم حتى احتـوته رعدة ، وكأن برقا من الذكرى قد خطف امام عينيه . ثم سكت سكوتا طويلا . ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها فى صدرها من هول ما ترى. وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها. وخاطرت الخادم بتذكيره فقالت : « سيدي الشيخ ، كيف اجيب السائق ؟ » . فقال لهـا : « قولى له انى سأوافيه الساعة »

□

وكان البريد بين أراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات ترسين مطوقين بجلد أسمر وفى كل عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر . ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شيء من الرواء . وقد كان أيسر عيب بها أنها حدباء . فاذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهى تزحف تحت الأفق زحفا ، حسب أنها من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت أعجازها . وكان البريد الذى يغادر أراس فى كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريد منتراى سيرمير

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهـابط الى منتراى سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق عجلة صغيرة قد شد اليها جواد أبيض وفيها انسان مدثر ، فرجتها الصدمة رجة أشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه وهو يركض جواده ملء فروجه (١) فقال حامل البريد : « ويل له ، لقد استطرد به الشيطان » . ولم يكن الذى مر يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة .

---

(١) اى ملء ما بين اقدامه ، والمعنى انه اسرع بجواده

فلو أنك سألته الى اين تمضى ؟ ومالك هكذا تسرع ؟ لأجاب : لا أدرى .

انه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فاما الى (أراس) واما الى غيرها . ومرت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة الى هاوية ، وكان يشعر أنه قد بات نهبا لقوتين متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم الا الله وحده ما كان يجول فى مناحى نفسه . ومن ذا الذى سلم من ان يضل ولو مرة واحدة فى ظلمات مغاور الغيب ؟ فسار وما عزم عزما ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه . فكان فى أخرى هواجسه مثله فى اولاها ، ما زال واقفا حيث كان . ثم عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة ، فقال : « مهما كانت العاقبة فمن العجز ألا آخذ بالحيطة . وليس للمرء أن يقطع بوقوع امر من الأمور ، ولكن له ان يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثا واستقراء . ومن نصب نفسه للحكم على الأشياء وهو غير مكثب (١) فقد اخطأ مواقع الرأى واطلع من الذر جبالا ، ولعلى اذا لقيت (جان ماتيو) وجدت الأمر أيسر مما فى نفسى ، ورأيته أهلا لما نزل به . أما (جافر) فما كان ليكبد (٢) لى وقد صرف الله عنى عنانه وصبه على (جان ماتيو) فصوب اليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من عنادها ، فانها ما نزلت بصدر الا تعصى على صاحبه انتزاعها . فلا خوف اذن من ذلك الداهية » ولا أكذب نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحا ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى أصرفه كيف اشاء

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر فى قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب

---

(١) أى قريب (٢) أى يصعب على

سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر (١) احضارا يطوى فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اندفع فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع

ولما تنفس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت مدينة مونتراى سيرمير فنظر الى أفق قد ابيضت ذؤابته ، وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء ، اصباحها أشبه الأشياء بامسائها . لا تكاد ترى تباشيره ، ولكن أخيلة (٢) التلال والأشجار قد أضافت الى ما كان فى نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى ، وكان كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم (٣) الطريق قال فى نفسه : ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه

وكان لخبب الجواد وجرس جلجله ووقع العجلة على البلاط ، ايقاع حسن ونغم متماثل يدخل الأنس على نفس الخلى ويزيد فى أسي نفس الشجى

فبلغ قرية (هيدسان) وقد أضحى ، فوقف أمام نزل رجاء أن ينفس عن الجواد ويعلفه . وكان جوادا كما قال عنه صاحبه من أصل بولونى عظيم السليل (٤) سحيرا (٥) ادك (٦) أهنع (٧) مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب الحافر . فهو وان لم يكن أصيلا كان عصلبا (٨) متينا . فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت أعطافه بحميم

وكان لا يزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل اليه العلف ، وحانت منه التفاتة الى العجلة اليسرى ، فصاح بالرجل : « أوأنت على سفر بعيد ؟ » . قال : « مالك ولهذا ؟ » . قال : « هل قطعت شقة طويلة ؟ » . قال : « خمسة فراسخ » . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر الى

---

(١) أى يجرى جريا سريعا (٢) جمع خيال (٣) جوانب (٤) اى كبير الراس . (٥) كبير البطن (٦) عريض الكفل (٧) قصير العنق (٨) اى قوى الأعصاب

العجلة : « لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال ان تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر الى ما حل بها من العطب » فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام . فقال الغلام وهو يحاوره : « أولى(١) لك ، فما كان أخلقها ان تطرحك وجوادك فى حفرة من حفر الطريق » . ثم أشار الى مكان العطب : فاذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها فى منتراى سيرمير ، فقصف اصبعين من أصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى (٢) فقال الرجل : « ابغنى نجارا له خصيصاء بهذا العمل » . فقال : « انه على خطوتين منا » . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت أسارير وجهه كأنه مطبب ينظر الى ساق مهشمة . فقال الرجل : « أتعالج اصلاحها فى الحال ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ومتى أسافر ؟ » . قال : « غدا » . فأجاب الرجل : « غدا ؟ » وقد ملكه الدهش . فقال النجار : « ان اصلاحها يستوفى عمر النهار كله . فهل أنت من أمرك على عجل ؟ » . قال : « ما أحوجنى الساعة الى السفر » . قال : « وددت لو تهيأ لك ذلك » . قال : « أصلحها ولك حكمك (٣) » . قال : « ليتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك » . قال : « انى مسوق الى السفر فاذا أعياك اصلاحها فابغنى غيرها » . ثم قال : « أهنا مركبة للكراء ؟ » قال : « عندى مركبة يقبضنى عن اكرائها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لى أنك غير حريص على مال غيرك » . قال : « بعنيها » . قال : « أما البيع فلا » . قال : « انى ندى الكف وان اشتط البائع » . قال : « تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس (٤) والثلاثين من

(١) نجوت وما كدت تنجو، هكذا شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من امضغ العرب للشيح والقيصوم (٢) المحوى بتشديد الواو المسمار القلاووظ (٣) اى ما تشاء من الأجر (٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد انه لا يستخدمها مطلقا

كل شهر ، فان شئت اكتريتها على شريطة الا يراك ربهـا وأنت منطلق بهـا ، ولـكنها عجلة عاتية لا يستظل بهـا جواد واحد ، ومن لك الساعة براسين من الجيـاد ؟ » . قال : « من مرابط خيـل البريد » . قال الرجـل : « وما وجهك ؟ » (١) . قال : « مدينة أراس » . قال : « أوحتم من الحتم أن تبلغها اليوم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « الا يستوى عندك ان تبلغها فى فجر هذه الليلة ؟ » . قال : « لا » . قال : « هل تحمـل جوازا للسفر ؟ » . قال : « نعم » . قال : « انك اذا تهيأ لك أن تحصل على جوادين من مربط خيل البريد فما أنت ببالغ أراس قبل الغد ، فان خيول البرَيد فى هذه المراحل منثورة فى المزارع ، ونحن فى ابان الحرث وهم يجمعون له الخيل انى أصابوها . فاذا لجأ سيدى الى ذلك كان عليه أن يلبث نصف يوم عنـد كل مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات » . قال : « أسرح جوادى هذا من عجلتى وأمتطيه فابغنى سرجا » . قال : « وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ » . قال : « لقد ذكرت منى ناسيا . انه لا يصبر على صحبته » . قال : « هل من سبيل الى جواد نبيـل يبلغ بى اراس من غير تنفيس (٢) » . وقال : « انك لن تظفر به ، وهبك وجدته فان ربه ليضن به ولو ملأت يديه ذهبا » . فشاع السرور فى نفسه وقال : « ان للعناية ليدا فيما أرى ، أوليست هى التى أتلفت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد أنذرتنى فلم يلونى انذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما أنا فيه ، فما ثنانى برد ولا قعد بى نصب ، ولا أرهقتنى نفقة ، فأصبحت وقد عدانى اللوم ، فاذا استحـال على المضى فى طريقى فتلك مشيئة القدر » . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ،

---

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل (٢) اى فى مشوار واحـد كما تقول العـامة

وخيل اليه أن السهم الذى ضل نصله فى فؤاده قد انتزعه منه نازع ، فوجد لذلك روحا لم يجده منذ رأى وجه جافير وقال : « لقد علم الله أنى صنعت ما يكاد يخـــرج عن الطوق فأخطأنى التوفيق ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله الا الرجوع على هاتين النعلين »

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل الى اذن حى ولبث مكتوما ، ولكنه كان على الطريق المعبد . ومن شأن مثله أن يلفت المار الذى يستهويه حب الاستطلاع فيقف ناشرا اذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم الا من هو فارغ لذلك . وكذلك وقع (لجان فالجان) فبينا هو يحاور النجار واذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى اختفى وما كاد يهم (جان فالجان) بالرجوع حتى عاد الغلام يصطحب امرأة عجوزا

قالت العجوز : « ان غلامى هذا قد نقل الى أنك فى حاجة الى مركبة » . وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد . فلبث غير بعيد ثم أجاب : « نعم أيتها المرأة الصالحة ، فأنا فى حاجة الى مركبـــة أكتريها ، ولكنهم يزعمون أنى أحاول المحال » . قالت : « لقد وجدتها » . قال : « أين ؟ » . قالت : « عندى » . فاحتوته قشعريرة وقال فى نفسه : « كان الذى خفت أن يكون »

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل وأكلها الصدأ وفعل فيها الجو فعله . ولم تكن بأحسن حالا من مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأب على ما فيها أن تقله الى أراس ، فلم يجد عنها مزحلا ، فاكتراها على حكم ربتها وشد اليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينا كانت العجلة تجرى

به كان يجرى فى نفسه حديث غريب : « لقد أحسست منذ هنيهة سرورا بعثته تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المضى فى طريقى وأرى الساعة انه سرور كاذب. الويل لى. أيسرنى الاحجام عن مقصد أنا الذى وجه اليه نفسه مختارا والقعود عن سفر أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقا بارادته ؟ »

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتا يهيب به أن قف ، فأوقف العربة ارتجالا وقد عرته هزة المحموم المختلج ولعلها احدى هزات الأمل . واذا بغلام العجوز يناديه : « أنا الذى هيأ لك الحصول على العجلة » . قال : « وما تريد ؟ » . قال : « أجرى على ذلك » . قال وقد فارقته تلك الأريحية التى طالما تهزه الى اسداء الجميل : «اعزب ولا كرامة» ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، وأراد أن يعوض ما أضاعه من الزمن فى هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى عناء من الجر وكان قد خرج به غب (١) سماء فكابد من الوحل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات أربع حتى بلغ سانت بول . وهناك نفس عنه فى نزلها وقاده الى الاسطبل ووقف يعلفه. وأقبلت ربة النزل فقالت : « ألا يأكل سيدى ؟ » فقال : « ما أحوجنى الى الطعام » . وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، وأقبلت خادم ، فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجد لها فى نفسه محلا فأهوى الى الخبز، فمضغ منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل. فقال له : « ما لهذا الخبز مرا ؟ » وكان ألمانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفأ بعد ذلك الى الاصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق به الى مدينة (تنك) وكانت على خمسة فراسخ من أراس. فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر

---

(١) اى عقب مطر

وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية أو سبات

وان لوجوه الارض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها وما زال كاسف البال وفاته قولهم : من سافر فقد تجدد ، وما يدريك لعله كان يقارن فى نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشرى الذى لا يستقر فيه شيء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . الم تر الى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، والى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطا يديه ليمسكه فيفلته ، وكل حادث ينتابنا هو لية فى طريقنا لا تلبث أن تسلمنا الى الكبر ، وكلما احسسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذى يستطرد بنا زمانا ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتى من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه

وطلع الشفق على مدينة تنك فى آن ، وكان النهار قصيرا فانطلق حتى اذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر الى جواده : « أرى جوادا مكدودا » ثم نظر الى الرجل وقال : « لعلك تريد أراس ؟ » . قال : « نعم » ، قال : « انك لن تبلغها على هذا الجواد» . قال : « كم بيني وبينها ؟ » . قال : «سبعة فراسخ» . قال : «ان دليل البريد لايقول بقولك» . قال : « انهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضى فيه ، وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك ، فاذا بلغت كامبلان فتيامن واركب المحجة (١) الى اراس » . قال : « أخشى الضلال فى هذا الليل البهيم » . قال : « أولست من

(١) الطريق

أهل هذا البلد ؟ » . قال : « أني غريب » . قال : « عد الى تنك واقض الليلة فى نزلها واستبدل بهذا الجواد الذى نزح التعب قواه جوادا يقلك الى أراس » . قال : « استحال غير السفر فى هذه الليلة ». قال : «استأجر جوادا ودليلا » . فعمل بمناصحته وقفل الى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل

وغاب فى أحشاء ليل قد كسر على الارض جناحيه. وكان الطريق ، وعرا والعجلة تجلجل (١) فوق نكت الارض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : « أيه ايه ولك ضعف الأجر » . فصاح الغلام : « لقد عطب العريش ، فكيف نمضى ونحن بين طريق وعر وليل خليق أن تصد محارمه (٢) عن السرى ، فهل لك أن تعود الى تنك وانا الضمين أن تبلغ أراس عند منبلج الصباح » . فقال : « أمعك حبل وسكين» . قال : « نعم » . فأهوى الى شجرة فاقتضب منها فرعا أقامه مقام العريش وانطلق فى سبيله

وكان الوادى فى ظلام دامس والضباب (دان مسف (٣) فويق الارض هيدبه) ينبعث من التلال كأنه كسف من الدخان وقد شاع فى سواد السحب بياض ، وهبت ريح البحر فى جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبه الأصوات بصوت الأثاث عبث به عابث

فتمخخ (٤) البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التى قضاها منذ سنين ثمان فى ضواحى مدينة (دينى) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى الى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغلام : «ما هذه

---

(١) أى تتحرك مضعضعة (٢) أى مخاوفه (٣) ماخوذة من قول الشاعر: يصف سحابا قريبا من الأرض : دان مسف فويق الارض هيد به * يكاد يدفعه من قام بالراح (٤) تمخخ أخرج مخها

الساعة ؟ » . فقال : « انها الساعة السابعة وسنبلغ أراس فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة »

ونزلت برأسه فكرة لم يسبق لها فى النزول ، فقال : « ويل لى ما أضيع ما جشمت نفسى فى يومى هذا من التعب أما كان الأخلق بى أن أعلم علم تلك القضية وموعد النظر فيها » ثم قدر فى نفسه تقديرا لذلك الموعد وقال : « ان الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر فى هذه القضية لا يفتقر الى الكثير من الزمن ، ان هو الا سؤال وجواب فشهادة أو شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى التغريم ، ولعلى أبلغ الجلسة قبل الفوات »

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة مونت سان ألواى وقد سطمت غياهب الظلام

□

ولنعد بالقارىء الى « فانتين » :

فى الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين رضية البال ، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يهد الحيل (١)

ولما أصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب فوجدها فى فورة من النفس فطلبت اليه أن ينذرها عند قدوم مادلين

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها . وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقدرة ، وتحرك شفتيها كأنها تذرع (٢) بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت عيناها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه أو كاد . وكانت تفتح

---

(١) الحيل والحول ، بفتح الحاء فيهما : القوة (٢) تقيس بالذراع

بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب فاذا دنت ساعة الشدة فان مددا من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الارض

وكانت كلما سألتها الراهبة : كيف أنت ؟ قالت : « احمد الله ولا أطلب الا رؤية مادلين » !

منـذ بضعة أشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيه فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى فانتين وكأنها ظل لفانتين . أما اليوم وقد فنى جسمها فقد كنت ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين (والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خلقها أثر فى خلقها فانظر الى تلك المرئية التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعا ، كيف هبط أكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظام نحرها ، وانبرت اعضاؤها ، وأصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الأشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ، فأف من المرض فانه يرتجل الشيخوخة وانه لأنجب مطايا الكبر

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولما علم بغيابه حرك رأسه حركة أعربت عن الأسف

وكان مادلين يأتى فى عصر كل يوم وما تخلف مرة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل طيبا

وعاودتها عنـد العصر فورة النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة فى سريرها ، تلك التى كانت لاتنبعث لها جارحة من المرض والهزال . ثم شبكت ذراعين قد أنحلهما السقم ، وأرسلت من صدرها تنهدا خيل معه الى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها ثقلا ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم انسان .

ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر اليــه ، وكأنها معلقة الأنفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالهــا . ثم ألقت برأسها على الوسادة ومرت الساعة تلو الســاعة ولم يزرها زائر

وما رآها على تلك الحال راء الا وعلم بما يجول فى فكرها ولكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم تتوجع

وسمعتها الراهبـــة قبيل الغروب وهى تقول بصـــوت خافت : « اننى هامة اليوم أو الغد ، فما كان أخلقه اليوم بزورة الوداع ».ثم طفقت تغني ــ وكأن صوتها نفحة من نفحات النسيم ــ أغنية عتيقة تدعى بأغنيـــة الأرجوحة ، كانت تنغم بها فانتين لانعاس طفلتها فى عهدها الاول ، وقد كان صوتها يقطر حزنا ، وايقاعها مشجيا لا يملك السامع معه الدموع من أن تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبـــة التى درجت على الزهد والتقشف

ولما أعتمت علت وجهها آيات الذهول وارسلت الراهبة صبية تسأل عن مادلين فعادت على الأثر وأسرت لها أن مادلين قد سافر وحيدا فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده

وقد رآه قوم على طريق أراس وزعم قوم أنه قد ركب طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم على باطنه . وبينما هما يتساران على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه واذا بفانتين وكأن نافضا من الحمى تمازجه حركة المعافى فى بدنه قد حركها فى سريرها . فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرفقيهــا وأرهفت للسمع أذنيهــا وفرجت برأسها ما بين سجفى كلتهـــا (١) وصاحت بهمـــا : « انكما تخوضان فى حديث وان لمادلين فيه لشأنا » . ونادتهمـــا

(١) الناموسية

بصوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من اثره فى نفسيهما ان ظنتا أن المتكلم رجل من الرجال ، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما : « مالكما لا تنطقان ؟ » . فقالت الصبية بصوت خافت : « ان البوابة تقول انه لا يعود الليلة » . وقلت الراهبة على اثرها : « اهدئى أنت ونامى » . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الأسى : « انه لا يعود ، أراكما تتساران فى شيء تحاولان كتمانه عنى ، ولا بد لى من الوقوف عليه » ، فالقت الصبية فى أذنى الراهبة كلمات فاحمر وجه الراهبة وهالها أن تكذب ، ثم ترددت بعض الشيء ، وقالت فى نفسها ان انا صدقتها فى مثل هذا الموطن فقد قتلتها ، وان أنا كذبتها فقد قتلت كرامتى . ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه : « ان مادلين قد سافر اليوم »

فاستوت المريضة فى سريرها وسرت بنفسها عقبة من السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت : « انه سافر ليرى كوزيت » ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة : « الآن حلا لى النوم امضاء لأمرك فلا تنزلى أمرى على الجراة عليك اذا رفعت صوتى فى الحديث ، فما فاتنى أن ذلك كان خروجا عن أفق الأدب وانما استخفنى السرور ! ثم أخذت مضجعها بعد أن لثمت صليبها ، وقالت لها الراهبة : « اهدئى ونامى » فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم المريضة

وانشأت فانتين تقول : « سافر الى باريس وما كان اغناه عن ذلك ومونت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى مفاجاتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالأمس حين جر الحديث الى ذكر كوزيت اننى سأراها قريبا واخذ

توقيعى على كتــاب الى أصحــاب النزل ولا أحسبهم الا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عنى كوزيت وقد وفوا أجورهم فحبسهــا عنى افتيــات على أولى الأمر ، فلا تومئى الى بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلهــا وسعادة لا حد لها . أو لست خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه طفلتى ولا أحسبها وقد بلغت السابعة الا صبية حسناء ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو أن لى عمر الأبد لهان ذلك البعاد

« فما أطيب عنصر ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك البرد القارس لانقاذ طفلتى ، ولعله يعود فى الغد من مونت فورمى ، وهى بلدة قد قطعت طريقها على قدمى منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة علىّ وان كان يسيرا على العجلان ؛ فيا ترى كم بيننا وبينها ؟

فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة : « انه سيعود باذن الله فى الغد » . فقالت : « سأرى بنيتى فى الغد . ان الأمل بلقائها قد ألبسنى ثوب العافية، فلست مريضة كما تزعمون ، ولكنى مفتونة ، فلو أنى دعيت الساعة الى الرقص لأبدعت فيه »

وكانت فى هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات وما أشبه سرور الأمهات بسرور الأطفال

ثم ألقت برأسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتيــاح ، فأطبقت الراهبة الستائر على كلتها رجاء أن يأخذها النعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة فى المكان فعزا ذلك الى نوم المريضة فخافت (١) من مشيته ودنا من سريرها وأزاح

---

(١) أى مشى على أطراف أصابعه

الستار فرأى على ضوء الساهرة (١) وجها هادئا وعينين لم يرنقهما النوم ، فابتدرته قائلة : « انهم سينيمونهـا هنـا بجانبي على سرير صغير » . فعجب الطبيب من أمرها وظنها تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة الأمر . ثم عاد الى سرير المريضة . فقالت : « اذا تيقظت بنيتى ألقيت عليها تحية الصباح ، واذا نامت صنع بى تنفسها الهادىء ما لا يصنعه الدواء ، فأتجه الى العافية » . فقال لها الطبيب : « يدك » فمدت يدها وهى تبتسم وتقول : « ألا ترى أنى نجوت ؟ » فدهش الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانا . فقـال : « انه من صنع السرور الذى أدخله على نفسها الأمل بلقاء بنيتها » ثم أوصى بالسكوت وأمر بدواء يلطف من حدة الحمى اذا هى عاودتها فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : « اذا أسعدها الطالع برجوع مادلين فى الغد فقد نجت »

وكائن من سرور مسح من مرض ، وانه لسر من الأسرار التى سيكشفها العلم فى مقتبل الزمان

□

ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل (بأراس) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه الجواد الأبيض الى الاصطبل ثم عاد الى النزل وجلس فى احدى قاعاته وارتفق (٢) على منضدة وكان قد استوفى عمر يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر

ولو أنك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى . ودخلت عليه فى هذه الأثناء ربة النزل ، وقالت : « أيرغب

---

(١) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة
(٢) اعتمد بمرفقيه

سيدى فى العشاء والنوم ؟ » . فأومأ اليها برأسه ايماءة الرفض ودخل على أثرها غلام الاصطبل وقال : « ان جوادك مكدود » فابتدره قائلا : « أوليس فى طوقه السفر غدا ؟ » . قال : « انه لا يستطيع الحركة قبل يومين » . قال : « أين مكتب البريد ؟ » فقيد اليه ، فأخرج جواز السفر وطلب العودة الى مونتراى سيرمير فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليا ، فأجيب الى طلبه ودفع النفقة وأنذر بالسفر قبيل السحر

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكبر عليه أن يسأل المارة ، فعبر النهر وخلص الى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل فانوسا (١) فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه انسان ، ولما أمن ذلك سأله : « أين دار المحكمة ؟ » وكان الرجل من ذوى الأسنان . فقال له : « يلوح لى أنك غريب فاتبعنى فان طريقى عليها » . فانطلقا حتى اذا كانا على كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدثه : « ان كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على أنى لا أزال أرى ضوءا بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ، فان كنت شاهدا فقد جئت فى الوقت » . قال : « انما جئت لاستشارة محام » . فقال الفلاح : « هاك الباب فاذا دخلت فارق الدرج »

فمضى الرجل على ارشاد صاحبه فاذا هو فى قاعة فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم يتهامسون ، وان رؤيتهم وهم فى ملابسهم السوداء لمما تنقبض لها النفس ، فقل أن تخرج كلمة من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجد ريح البر ، فلا يكاد يسمع الا نعيبا يؤذن بحلول العقاب

(١) الفانوس فى الأصل النمام وقد استعمل للشمع لأنه ينم عليه

فاذا مررت بهم حسبت أنك امام خلية دونها خلايا النحل ـ خلية تطن فيها العقول طنينا حتى ليؤتى لك وقد أخذتك الوحشة أنك فى معبد مظلم تعمره الأرواح . وكانت القاعة على ترامى أطرافها لا يضيئها إلا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح أن يسأل أول محام لقيه : « فيم القوم ؟ » . قال : « قضى الأمر » . فارتاع وقال : « قضى الأمر ! »

نطقها بمرارة لفتت اليه المحامى . فقال : « العلك قرابة (١) له » . قال : « لا شأن لى ولا قرابة ، فهل حكم بالادانة ؟ » . قال : « استحال غير ذلك » . قال : « أتراه سجن الأبد ؟ » . قال : « نعم » . قال بصوت لا يكاد يسمع : « لقد عرفت اذن شخصيته » . قال : « أية شخصية ؟ لقد كان الأمر جليا . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب ! » . قال : « أعن امرأة تتكلم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ما لهم وقد فرغوا من أمرها لا يزالون فى مقاعدهم ؟ » . قال : « انهم ينظرون منذ ساعتين فى شأن آخر » . قال : « وما عسى أن يكون ؟ » . قال : « مجرم عائد من أرباب السوالف وأضياف السجون لا يحضرنى اسمه قد أخذوه بسرقة جديدة ، ولعلهم لا يتلومون فى الحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتنى النظرة اليه مؤونة التحقيق فى أمره » . قال : « ألا يتسنى لى الدخول ؟ » . قال : « ان القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فاذا عادوا الى النظر فربما تهيأ لك الدخول فى غمار الناس » . قال : « ومن أين أخلص اليها ؟ » . قال : « من ذلك الباب الكبير »

ثم غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكان ابرا من

---

(١) أى قريب

الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الألم أم السرور . وجعل يقترب من الناس وهم قنابل (١) قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : « ان هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وان لم تثبت عليه السرقة فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ، ولم يبق الا دفع المحامي ورد النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من العقاب . فالمدعى فتى ذكي الفؤاد أديب ينظم الشعر ويعرف كيف يوفى الاتهام حقه » . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله : « متى يفتح ؟ » فقال : « لا يفتح » . قال : «كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها » . قال : « قد عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها » . قال : « ألا أجد فيها مكانا أصف فيه قدمي ؟ » قال : « لا » ، ثم عطف قائلا : « ان خلف الرئيس مكانا أو مكانين لا يؤذن بحلولهما لغير الخاصة » . ثم ولاه ظهره فنكس الرجل رأسه ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه في حرب عوان ثم أخرج من جيبه بيضاء (٢) خط فيها : « مادلين شيخ مونتراي سيرمير » ثم صعد الدرج وشق الصفوف وأتى الحاجب وقال له بصوت الآمر : « احمل هذه الى الرئيس » فأخذها الحاجب وألقى عليها نظرة عجلى ومضى طائعا

□

منذ سنين سبع ومادلين نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الأفق فجازت حدود بلده الى ما جاوره من البلدان فتعالم (٣) الناس فضله وأخصب

---

(١) جماعات جماعات (٣) أى علم (٢) أى ورقة بيضاء

به الزمان والمكان فنمت فى عهده صناعة الخرز الأسود وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه

وكان رئيس الجلسة فى أراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه ، فلم يكد يحمل الحاجب اليه رقعته حتى أذن له ، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الارض بجبهته وحتى تبين مادلين اعظامه فى حماليق عينيه ، وقال له : « ليدخل سيدى غير مأمور » ومشى أمامه مشية العبد القن

ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث اه ثم مد له يده برقعة الرئيس ، فتناولها واقترب من المصباح وقرأ على ضوئه : « أن رئيس المحكمة بآراس يهدى تحية يمازجها الاجلال الى الشيخ مادلين »

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيدا فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا تسر النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة أقيمت على بساط أخضر . وذكر قول الحاجب عند انصرافه : « انك يا سيدى فى قاعة المجلس ، فاذا أدرت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى » ، ففعلت فى نفسه تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمة التى بعثها فيه ما صادفه فى ذلك المشى وما مر به فى تلك الدرج . وأوفت الساعة المرهوبة فحاول أن يجمع أشتات نفسه فلم يغن شيئا ، وتضعضع فى ساعة هو أحوج ما يكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة . وكم قطع فى مثلها سلك التفكير وملكت على المرء المذاهب ، فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الأبله الى تلك القاعة الساكنة المروعة التى يقضى بها على أرواح العباد . وكان به

وهو ينظر اليها أن اسمه سوف يدوى فى جوانبها وأن المقدور عليه سوف يحلق فى سمائها

وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول : «ترى ما هذه القاعة وترى من أنا ؟» وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر ألما ولم يحس جوعا ، ودنا من اطار أسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطها جان نيكولا (باش عمدة باريس) وأحد الوزراء ، رصد فيها أسماء النواب والوزراء الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا الى السجن ، ولو أن امرأ تفرس فيه لأدرك للوهلة الاولى ان الرسالة قد أخذت من نفسه محلا ، على أنه قد قرأها ثلاثا ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكر فى فانتين وكوزيت

وانفتل وهو فى تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدمن اليه نظرا هادئا ثم بان فيه الخوف ، ثم أطل من محاجره الفزع ثم تلاه الجزع فندى بالعرق جبينه ، وأتى على أثر ذلك بحركة يخطئها الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : « ما الذى يحملك على كل هذا ؟ » ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع اليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة الى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفة من النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور كأنها السواهر

فتنفس الصعداء وأصغى ، فاذا هو فى سكون الرموس فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى اذا غاب فى أحشاء تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ، فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهره الى الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقفا

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هذا الظلام نهبا

للبرد والهواجس جعل يفكر . على أنه قد فكر فحمة (١) الليل وسراة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : « وا أسفاه ! » . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم امال راسه وأرسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع أدراجه . وجعل يمشي مشية المتثاقل كأن لاحقا لحق به في فراره فصده عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل القاعة التي برحها وأخذ نظره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر اليها نظرة الشاة الى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لايدرى الى الباب وأهوى بيده الى القبضة فأدار زرها فاذا بالباب وقد انفلق عنه ، واذا به في قاعة الجلسة فخطا خطوة واقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى

وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى في اثنائها انقباض في الصدور .

وفي الجانب الذى وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شيء من الاكتراث ، عليهم اردية بالية ، وهم بين قارض لظفره ومغمض لعينيه

وفي الجانب الآخر لفيف من الناس في أخلاق (٢) الثياب وقد نثر بينهم محامون في شتى الأزياء ومختلف الأوضاع وعلى ضواحيهم (٣) أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقذار وفوق أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها أجواخ صفراء كانت في ميعة صباها خضراء ، وحولهم أبواب قد طلاها تداول الأيدى بطلاء من القار ، تضيء لهم سرج من

---

(١) اى طول الليل والنهار (٢) الثياب البالية
(٣) اى بالقرب من اكتافهم ومناكبهم ، احراس جمع حرس

وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته وانى لملق عليكم بما قال :

« لست فى حاجة الى اقامة البراهين المحسوسة أو الادلاء بالحجج الملموسة ، فانى أعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بجان ماتيه) كما يزعم وانما هو (جان فالجان) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الأثيم — سرح من السجن بعد أن انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه

«لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك علي غلام صغير ثم ظهر حائط بستان ، وأكبر ظني أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة آواه فى مدينة « دنى » وأذكر أننى رأيته فى سجن تولون أيام كنت أقوم بعمل الشرطة هناك . فأنا به أعرف من أمه التى ولدته »

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، وألح المدعي على أثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على أحد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو الا أن غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين . واذا الحاجب ومعه حرسى من الأحراس يقودان (بريفيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الأشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر(١) عليه بأحد الأحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد

وكان (بريفيه) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليه سيما الأنذال وترد عليك منه سحنة المتهالكين على ذات(٢) اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منه ما كابده فى السجن من الأذى حتى قال الموكلون به انه يريغ (٣) أن يكون رجلا نافعا ، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده

---

(١) أى استعان (٢) المادة (٣) أى يحاول

ولكن يجب أن نذكر أن ما ظهر من الانقلاب فى طباع هذا المجرم انما وقع فى عهد العودة ، عودة البربون

فقال له الرئيس : « بريفيه ، انك رجل قد ركبت من المنديات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وان جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفر نفسك من الشرف والانصاف ، فحبتها مزقة منهما ، فأنا أستحلفك بما بقى فى نفسك من ذلك الحباء ان كان له كما أرجو بقية ، وأريدك على أن تتبصر قبل الجواب فى هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل وأخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا اذا بدا لك أنك تكن على الحق »

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : « انظر اليه واجمع أشتات ذكرياتك وانطق بوحى نفسك اذا كنت لا تزال مصرا على أن هذا الرجل لم يكن غير (جان فالجان) رفيقك فى سجن تولون »

فأجاب (بريفيه) وقد ألقى نظرة على الجمهور : « انى أول من عرفه فهو (جان فالجان) رفيقى فى سجن تولون

« دخل فيه سنة ١٧٩٦ وخرج سنة ١٨١٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وانى أراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان فى السجن ساهى الطرف كثير الاطراق »

فأومأ الرئيس اليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا

وجىء بالشاهد الثانى (شنيل ديفيه) وكان لا يزال فى لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة

وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه اذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الأعضاء ، مضعوف الجسم قد ركبت فى رأسه عينان تقرأ فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه بـ (أنكر الله)

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التى ألقاها على سابقه وحين ذكره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حق الحلف رفع رأسه وحدق فى وجوه الحضور

فقال له الرئيس : «ألا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل ؟ »
فقهقه الشاهد وقال : « كيف لا أعرف رجلا سلكت معه فى سلسلة واحدة بضع سنين ؟! »

وجىء بالشاهد الثالث « كوش باى » وكان مجرما قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من (لورد) كان يرعى القطعان فى رؤوس الجبال ، ثم حال الى قاطع سبيل ، وكان فى معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها ، وهو من أولئك الذين بنيت طبيعتهم بناءة الضوارى فنبذهم المجتمع وقذف بهم فى بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية ، وألقى عليه قولا ثقيلا ، ثم سأله السؤال المعهود . فأجاب المتهم : « هذا هو جان فالجان وكنا ندعوه لفرط منته(١) بجان لجريك »

ففعلت تلك الشهادة فعلها فى الحضور وزاد فى أثرها ذلك الوضوح الذى ألبسها لباس اليقين

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على المتهم ، ثم جعلت تشتد وتمتد كلما ألقيت شهادة من تلك الشهادات

وكل هذا والمتهم ملق بسمعه وهو ساهم الوجه سادر النظر ، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه ، ويقول على مسمع الحرس : « شىء حسن » . فقال له الرئيس : « ما قولك ؟ » قال : « شىء حسن ! »

فعلا الضجيج فى القاعة وضج حتى المحكمون وقالوا : « هلك والله الرجل ! »

---

(١) المنة القوة

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس الى السكينة .
وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت ينادى : « انظروا هنا أيها الشهود »

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصوت الجهير الذى كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مصدره فاذا بهم يرون رجلا قد خرج من صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب الى وسط القاعة . وما هو الا أن تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح لصياحهما عشرون صوتا : « السيد مادلين ! »

وما كان الا هو وقد أضاء وجهه المصباح المنصوب على منضدة الكاتب ، فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرق اليه العبث

وكان أصفر اللون قد سرت به هزة وحال لون شعره فقد دخل مدينة آراس وشعر راسه أرمد(١) فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحـدة

فاشرأبت الأعنـاق وتطلعت النفوس وشـحذ الشعور ومرت بأهل القاعة فترة من الحيرة ، وحق لهم أن يحاروا ، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، ورأوا أمامهم رجلا هادىء الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع فى نفوسهم أن هذا الواقف المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة

ولم يكن اجل حيرتهم طويلا فقد اتجه الرجل الى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : « أتنكرون هذا الوجه ؟ »

فعل ذلك قبـل أن ينبس الرئيس بكلمة ، أو يتمكن الحرس من الحركة

فبهت الذين شـهدوا وأنكروه بايماءة من الرؤوس .
ثم التفت الرجل الى المحكمين ، وقال : « سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا جان فالجان »

---

(١) اى بلون الرماد

فعلقت الأنفاس واخذت القوم رجفات الدهش ثم علاهم خشوع البلى ، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفزع الأكبر ، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الأمور

وانتشرت على وجه الرئيس طبقة من العطف والحزن معا ، فرمى المدعى بنظرة عجلى وهمس فى آذان الجالسين معه للقضاء ، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : « ابغونى طبيبا » وقال المدعى : « هذا السيد مادلين قد نزل به ما نزل وانا لنجد(١) له وجدا شديدا ، ونعلم أنه نبيل القدر زكى المشاعر ، فاذا راى الرئيس أن يأمر بحمله الى داره »

فابتدر مادلين الكلام وقاطع المدعى بصوت يمازجه السلطان ، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفا ، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه ، وقد مر بها أربعون عاما وهى لا تزال فى آذان من بقى حيا من أولئك الشاهدين :

« أشكر لك أيها المدعى ، فما انا بمجنون كما تزعمون . انكم على وشك أن تضلوا ، فسرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا المجرم الذى تنشدون

« وليس هنا سواى من ينظر بغير غطاء ، فهاكم الحقيقة خالصة غير مشوبة

« انى وقفت هذا الموقف لذات الله العلى ، وهو حسبى فخذونى . فقد طبت بذلك نفسا

« انى أردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت ، وأصبحت شيخا لمنتراى سيرمير ، وألقيت بنفسى بين الأخيار ، فلم يفسح لى الحظ بينهم مكانا ، فجئت وفى النفس أشياء لا يسعنى سردها ، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام توبتى فان الغد ببسطه كفيل

« انى سرقت مولاى العابد وسطوت على ذلك الغلام

---

(١) اى نحزن

الصغير ، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك أثيم ، وما كان له الخطء(١) كله وان كان من الخاطئين ــ وليس لحقير مثلى أن يعترض على العنـــاية أو ينصب نفســه لمناصحة الناس ، ولا أكذب الله ، فان العار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمرا ادا

« ولا يفوتنكم فى هذا الموطن أن السجن قد كان لى شر أستاذ ، فهو يخبث النفس ، ويمزق شمل الفضيلة ، ولقد صدق من قال : « ان السجون تخلق الأشرار »

« فلقد كنت قبله فلاحا قدما (٢) فأطلع منى السجن شريرا ، وكنت عودا من الحطب ، فصيرنى شعلة ، ثم ردت الى الرحمة ما سلبتنيه القسوة ، فنجوت بنفسى ، ولكن بعد الفوت . فاذا دق عن أفهامكم ما ألقيه الساعة عليكم ، فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام

« واليك أيها المدعى أسوق الكلام ، انى ليعرض لى أنك غير مصدقى ، وأقرأ ذلك فى حركات رأسك ، فأناشدك الله ألا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! أليس هنا من يعرفنى ؟ انى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضرا لوضح الحق »

◻

ليس فى طوق كاتب أن يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنات الأسى التى كانت تصحبها عبقة من الحسنى . ثم انفتل الى الشهود الثلاثة ، وقال : « بريفيه ألا تزال تنكرنى ؟ »

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه، ومر الرجل فى كلامه فقال : « ياشانيلديوه ، ألست كنت تدعى فى السجن بـ (أنكر الله) ؟ ولى فيك آية . . حرق بكتفك اليمنى ، حاولت أن تمحو به الثلاثة الأحرف التى وسمت

---

(١) الذنب (٢) القدم الساذج

بها ، فلم يغن ذلك عنك شيئا ، وثبتت الأحرف فى مكانها . أرأيتك ؟ ألم أقل حقا ؟ » . . . قال : « بلى ! »

ثم تحول ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه بسمة ما ذكرها رائيها الا وجد لها غمزا على قلبه ، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط

فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح أشراطا ولا مدافعين ، وقد أنسى كل غرضه : نسى الرئيس أنه جاء للرياسة ، والمدعى أنه قام للاتهام ، والمحامى أنه مثل للدفع ، والحرس أنهم أقيموا للحراسة ، فلم ينبس خلق بكلمة ، ولم يفزع ذو سلطان الى سلطانه

ولا عجب فان للمشاهد السامية خواص تملك على رائيها المشاعر وتحيل شهودها الى نظارة(١) يخرج بهم فرط ما هم فيه عن حد الشعور ، فلا يكادون يتساءلون حتى فى أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذى يذهب سناه بأبصارهم ، فهم فى داخلهم مأخوذون بروائع ما يشاهدون فى خارجهم

وضح الصبح وتكشفت ظلمة الشك عن جان فالجان فأنار ظهوره السبيل ، وكشف عن ذلك الحادث ، وأدرك ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الأمر ــ أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء

رجل يفتدى بنفسه رجلا آخر ــ لله ما أنبل هذه النفس

ثم قال الرجل : « انني لا أريد أن اطيل عليكم أمد ما أنتم فيه فقد عزمت على الذهاب لأنهم يأبون أن يأخذونى ؛ وعندى ما يدعونى الى الرجوع ، والمدعى العام يعرف من أنا ، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك »

قال ذلك وغبر يمشى الى الباب بقدم مطمئنة ، فما رفع صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله ــ مشى وقد حل فيه

(١) المتفرجون

خفى من العناية ما حل فى انسان الا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف

فلما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت الى المدعى وقال : « أنا رهن أمرك » . وعطف قائلا :

« أيها الحضور الا ترون أني جدير بالرحمة ، ولعلى كلما فكرت فى أني كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى حقيقا بالغبطة »

ثم خرج فصفق(١) الباب كما فتح ــ ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرا

وعاد القوم بعد فترة الى انفسهم ، فأمر المحكمون بتسريح « جان ماتيو » فخرج وهو يقول فى نفسه : « ما أشد جنون هذا الناس ! فأنا لا أكاد أفقه شيئا من جميع ما مر بى فى هذا الحادث . . »

« عود الى فانتين »

تنفس الصبح فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت الليل كله ، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال آلامها صورا من وجوه السعادة بقرب طفلتها ــ فانتهزت الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيىء لها جرعة من الكينا . وبينا هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفق على الارض ضبابا يقصر فيه قاب العين ، واذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح

رات مادلين وهو منها أدنى شيء ، فصاحت : « أسيدى الشيخ أرى ؟ »

فقال : « نعم ، وكيف حال المريضة » قالت : « ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شرا » ، ثم أعلمته علمها وقالت : « ولولا أن فكرة رفهت عنها لما طلع عليها هذا الصباح ، فقد حملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها »

---

(١) صفق الباب اى رده

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه

فقال لها : « أحسنت فى تركها على زعمها » ، فقالت : « وما عسى أن تقول لها اذا رأتك وحيدا ؟ » قال : « ان الله يلهمنا الجواب »

وكان الصبح قد وضح نوره ، فرات الراهبة فى مادلين ما راعها ــ رأت شعره الأرمد ، قد حال كله الى شعر أبيض . فصاحت به : « أى خطب نزل بك فشيبك ؟! »

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت ، يضعونها على فم المريض فتكدرها انفاسه ان كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة ، وقال : « حسن ..! »

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلا : « أليس من الميسور ان اراها الساعة ؟ » فقالت : « انك لم تأت بطفلتها فخير لها ألا تعلم بقدومك ، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك انما كان لذلك ، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب »

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : « أريد أن اراها الساعة فربما كنت عجلا » ، فلم تفطن الراهبة لما كان فى كلمة « ربما » من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : « ليدخل سيدى وليعلم انها نائمة »

فتقدم الى(1) الخادم باصلاح باب لم يكن مطمئنا فى مكانه، كراهة أن تتأذى المريضة بصريره . ثم دخل مخدعها وهو يخافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فاذا هى نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخوصا يبعث الأسى . وتلك آية ذلك المرض العضال التى طالما فجعت نفوس الأمهات السواهر على أولادهن الذين أبرم فيهم حكم الموت

---

(1) تقدم الى أى أمر

وكان هذا التنفس الشاق يكدر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها ــ ذلك الصفاء الذى كان يبدل فى نومها من مرأى ذلك الوجه ــ وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض وأمست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة (وهى البقية التي بقيت من جمال البكارة والشباب) لا تزال تختلج فوق ذلك الطرف الساجى . وقد اهتز جسمها من فرعها الى قدمها ، كأن أجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران . حتى ليخيل للناظر اليهـا أنه يحس ترويحها وان لم تقع عليها عينه

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يئس منها ــ فهى الى من يصوع (١) للطيران أقرب منها الى من ينهيأ للنزول الى القبر

ألم تر الى الغصن كيف يضطرب كلما امتدت يد لقطف زهره ــ ألا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهو يعطى ويمنع فى وقت معا ؟

كذلك الجسم البشرى فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين الساعة التى تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف (٢) الروح

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الأنصاب وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الأولى . وكان المنظر واحدا فى جميع وجوهه الا أن شعره فى هذه المرة كان قد عمه الشيب

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا واصبعه على فمه كأنه يأمر أحـدا بالسكوت . ففتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العطيف وهى تبتسم : « أين كوزيت ؟ »

---

(١) صوع أى تهيأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد إنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الأعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الاسلام فهى عربية بدوية ، قال الأعشى :

لمـا أمالوا الى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف

قالت ذلك وما أخذها دهش ولا استخفها فرح ، فقد كانت هى الفرح بعينه ، وعجيب أن يفرح الفرح

ألقت هذا السؤال : « أين كوزيت » وليس فى نفسها ظل للشك ولا فى خاطرها جولة للقلق ، فألجم اليقين المتجلى فى ذلك السؤال ، لسان مادلين فلم يحر جوابا

ثم مرت فى حديثها : « لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان النوم ، وكانت عيناى تتعقبانك أنى سرت ـ رأيت كأنك كنت محلقا فى سماء من المجد يطيف بك نور سماوى . على انى أعاودك السؤال : « أين كوزيت ؟ » لم لم تنمها بجانبى حتى اذا ما فتحت عينى فتحتها على تلك الطلعة البهية ؟ »

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه على أثر القائه . وأغاثه حضور الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله بقوله : « اهدئى فان ابنتك هنا » . فبرقت عيناها بريقا أضاء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلى معانى التضرع الى الله وأحلاها . ثم صاحت : « الى بها » وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تحمل ـ وهم من أوهام الامهات مبعثه العطف والحنان

قال الطبيب : « لم يحن الوقت فانك لا تزالين فى بقايا علتك ، فلا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى أبللت جئناك بها » . فقاطعته بحماسة : « لقد شفيت وأعيد عليك القول أنى شفيت ، فيا لله ما أحمق هذا الطبيب فانه يريد أن يحول بينى وبين ابنتى ! »

فقال الطبيب : « أرأيت كيف غلب عليك الغضب ؟ وما دام هذا شأنك ، فلا سبيل الى رؤيتها أو تملكى صوابك »

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الأسف : « انها حمقة أرجو ان تغتفرها لى ، ولا تنزل أمرى على الجرأة عليك ، فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه عن حد الرشد . فان كنت تخشى على مغبة اللقاء فأنا صادعة بأمرك ، صابرة مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت

الذي يؤذن لى فيه برؤيتها . . على أن رؤية ابنتى لن تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت حدوثه ، وغايتى أن احدثها الساعة بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صورا بيضاء ولمحت أناسا يبتسمون لى ــ وها أنا ذا أستشعر العافية وأحمد الله فقد مسح ما بى من الألم . ولكنى سألبث مكانى كأنى مريضة امضاء لأمرك وارضاء لهؤلياء الأخوات المقيمات هنا ، حتى اذا آنسوا منى السكينة وتيقنوا من ابلالى جاءونى بابنتى »

جلس مادلين على كرسى بجانب السرير فحولت وجهها اليه وهى تغالب كيد الألم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة وتدعو القوم الى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الامساك من سؤال مادلين ، فألقت عليه ألف سؤال وسؤال :

« لعلها سفرة ميمونة

« لله ما أنبل نفسك فقد أنقذت طفلتى

« خبرنى بربك أكانت جلدة على المسير

« أتراها تنكرنى عند اللقاء ، فقد طال عهدها بى

« ان الأطفال كالأطيار لا يكادون يذكرون فى يومهم ما رأوه بالأمس

« ترى كيف كان لباسها وغذاؤها فى ذلك النزل

« لقد كانت تؤلمنى ذكرى ذلك فى أيام بؤسى ، أما اليوم فقد أصبحت بفضل حدبك (١) عليها قريرة العين رخية البال

« ألا يتسنى لى أن أراها الساعة

« ألا ترى أنها جميلة

« ألا تأذن لى برؤيتها ؟ وان لم تفعل فمن ذا الذى يأذن لى سواك »

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : « ان كوزيت

(١) الحدب الحنان

مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فاهدئى واسترى ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال »

وكان سعالها يزحم دفاعه فى حلقها كل كلمة من كلماتها

فلم تبد فانتين شيئا من التململ خشية أن تزلزل كل آهة من آهاتها تلك الثقة التى تحاول بثهـا فى نفوسهم ، فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الألم

كل ذلك ومادلين ممسك بيدها ، ونفسـه تكاد تسيل جزعا

خرج الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيم عليهم السكوت ، فمزقته فانتين بصيحة : « انى أسمعها .. انى اسمعها » . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالاصغاء ، وعلقت انفاسها وجعلت تسمع

كان فى الفناء ولد يلعب ــ ولد البوابة أو ولد من شئت من العاملات

تلك احدى المصادفات التى ما زال الانسان يجـدها فى ثنايا الحوادث المحزنة ، كأنما هى جزء مما تهيئه يد الغيب من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجىء وتجرى دفعا لغائلة البرد وتلمسا للدفء ، وهى تضحك وتارة تغنى ــ وكذلك كان

وأى شىء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لعب الاطفال

تلك هى الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها « كوزيت» وصاحت : « تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها » !

وانقلبت الصبية من حيث أتت وغاب صوتها ، فلبثت فانتين فترة وهى ملقية بسمعها ، ثم فارق وجهها الاشراق، وقالت بصوت سمعه مادلين : « قاتل الله الطبيب فقد حال بينى وبينك »

وبعد قليل عاودها أملها البسام ، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة :

« سنصبح من السعداء ، ويكون لنا بستان جميل ، تمرح فيه كوزيت وتجرى على الأعشاب تطارد الفراش فاذا شبت وبلغت سن التناول . . . (١) ولكن متى تبلغ هذه السن ؟ » ثم جعلت تعد على أصابعها ، وتقول : « انها اليوم فى السابعة من عمرها » وبعد خمس سنين يكون لها قناع أبيض ، وتبدو فى هندام الفتاة !

« لله ما أحمقنى فانى أفكر فى الشىء قبل أوانه » ثم أخذت تضحك . . وكان مادلين يصغى الى تلك الكلمات وكأنه يصغى الى هبات النسيم ، وقد غض بصره وغاص فكره فى تأملات لا قرار لها

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفع رأسه فاذا بها فى صورة مروعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفس ، وقد قامت فى سريرها نصف قومة وبرزت كتفها النحيلة من قميصها واصفار وجهها ، ووقفت بنظرها على مشهد مروع فى الجانب الآخر من المخدع ، واتسعت من الرعب حدقتاها

فصاح مادلين : « ويلك ، ما بك ؟ » فلم تجب ولم تحول بصرها ، ولكنها مست ذراعه باحدى يديها وأشارت اليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت ، فاذا به يرى جافير

□

واليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الاول من الليل ، وانقلب الى النزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد

(١) التناول المقدس اول حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها

السفر ، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل الصباح . وما هى الا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد كتابا الى لافيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين

ولما غادر قاعة الجلسة فى أراس وعاد الحضور الى أنفسهم، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المس ، واصر على طلبه ، وقال ان هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الايام عن سره لم يزلزل من عقيدته ولم يغير وجه التهمة المصوبة الى (جان ماتييه) . ولكن أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من يده فتلقفها المحامى واطرد له القول فقال :

ـ لقد انقلب الأمر رأسا على عقب ، وأصبح المحكمون لا يرون أمامهم الا رجلا بريئا

وأخذ الرئيس جانب المحامى ، وانحاز له المحكمون فسرحوا (جان ماتييه)

ولم يكن للمدعى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على مادلين حين أفلته (جان ماتييه) ثم كتب على المكان (١) أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردد الرئيس بعض الشىء ، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب للملكية وقد كان مادلين ذكر امامه يوما كلمة (الأمبراطور) ولم يذكر بجانبها كلمة (بونابرت) فغاظه ذلك وحقدها عليه . وذكر له لشقوته تلك السالفة ، فهان عليه توقيع الأمر

وأبرد المدعى به بريدا خصيصا الى جافير بمنتراى سيرمير وتقدم اليه بالاسراع ، وكان البريد فارسا فذهب يعدو مرسل العنان

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته كما قدمنا ، وعاد الى منتراى سيرمير واتفق أن هب من نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطيا من حذاق

---

(١) اى فى الحال

الشرطة فأنهى اليه الأمر ، ووقفه بكلمتين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير الى امضــاء هــذا الأمر ساعة استولى عليه . ولو ان أحدا رآه وهو يلج باب الدار التى فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل ، لما قام بنفسه أن أمرا خطيرا قد حركه ، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة (١) فلقد كان هادىء السمى ساكن النفس بادى الجد وهو يرقى الدرج

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه ، لذعر من رؤيته. فقدكان زر بنيقته(٢) منحرفا الى جهة الأذن اليسرى بدلا من أن يكون محرراالى القفا

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظاميا فى واجبه ولباسه الرسمى . فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان ، ولا فى أحكام لباسه الرسمى وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له بالوقوع الا فورة فى النفس ، كانت أشبه الأشياء بالزلزال فى الارض

وكان قد اصطحب أربعة من الجنــد وكبيرا لهم ، وأمر سائرهم بالتربص فى الفناء

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد فى أن تدل عليه ، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولمـا بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع البــاب دفعا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو أحسنا القول لقلنا لم يدخل .. فقد وقف فى حرم الباب ، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمى مطمئنة فى عراها ، وقد علق فى أثنائها يده اليسرى ، وكان

---

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر أى محل سقوطه

(٢) ياقة القميص

رأس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد ، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادلين

وفى اللحظة التى التقى فيها النظران ، حال جافير وهو جامد فى مكانه الى صورة مفزعة !

وما من شعور بشرى فى نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثل فى صورة الفزع من شعور الفرح ، وقد طغى عليه فقد قلب سحنته الى سحنــاء مارد يريد أن ينقض على طريدته . وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأى ، قد فضح ما كان كامنا فى نفسه وبسط على ظاهره ما كان يضطرب فى زوايا باطنه . وأصبحت الفضاضة التى كان يجدها فى نفسه حين أخطأ ترسم الأثر ، ولم يصب الشاكلة فى أمر « جان ماتييه » وقد محاها زهو دخل فى نفسه حين علم أن فراسته لم تخطىء وأن شعوره لم يخنه فى تعقب جان فالجان . وتجلت فى جبهته الكزة (١) دمامة منظره عند ظفره ، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة فى سحنة بلغت مناها

وفى هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعــه الفلك وناجاه الملك ، لا يشعر بحقيقة موقفه حق الشعور ، لكنه لم يخل من شعور مبهم بنجحه وضرورة الحاجة اليه

فقــد كان يمثل فى ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور ، وهى تعمل متساندة على سحق قوة الشر

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان والعقل ونفاذ الرأى والايمان باكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعى ، وكل ما فى ذلك الفلك من قوة

---

(١) الكزة بتشديد الزاى الضيقة

ولا عجب فقد كان يحمى النظام ويستنزل صواعق القانون ، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة ، ويمضى القدر وينهض فى المجد نهوضا . ولم يخل نصره وان كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح

وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية (١) دونها بهيمية البشر

وما أخذته عين وهو يزاول أعماله المخيفة ، الا أخذها من خلال ظلالها بريق سيف الاجتماع وهو يلمع فى قبضته

وكان يشعر بسعادة فى استنكار ما يرى ، وقد وطىء باخمصيه هام الجرائم ، وقيد بعقبيه العصيان والفساد والشرور ، وكان يتفجج نورا وهو يستأصل من الفساد والشر .. وقد تجلت فى تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة المنظر ، عظمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس ، ولا طارت حوله دنية

ان الاستقامة والاخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثل الواجب ، كل أولئك الفضائل اذا حاد بها صاحبها عن قصد السبيل تراءت لك فى صور منكرة ، ولكنها على نكرها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة

فاجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية

ان لكل شىء آفة ، وآفة الفضيلة العدول بها عن القصد

للمتعصب فى دينه وهو فى عنفوان فورته فرح شريف النزعة وان لم يعرف الرحمة ، يلازمه ما ادرى أى لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

---

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية اتباعا لأئمة الكتاب فى الفلسفة والأخلاق والأدب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى أن سيبويه راس النحاة قد قال ان فيهما لغية وأرجو ان تصبح لغة باذن الله

وكان جافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثى لها ــ وكذلك الجاهل اذا فاز ــ فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه الذى تجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طبب من خبيث

لم تكن فانتين قد لمحت جافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه مادلين من يديه انتزاعا ، ولم يقو عقلها المضعوف على ادراك شىء . غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشيانه مخدعها . وكان أكبر ظنها أنه انما يريدها . فخانها العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر ، وأحست الحين ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس : « نجنى منه » . فأجابها بصوت يقطر سكينة ورقة : « اهدئى أنت فانه انما جاء يريدنى »

ثم التفت الى جافير ، وقال له : « انى لأعلم ما تريد » !

وصاح به جافير : « اذن فهيا »

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الأحرف وطمست على معالمها ، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام . ولم يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث ، ولم يعمد الى ابراز أمر الاستدعاء . فقد كان يعد جان فالجان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام ، فلبث خمس سنين يجالده ويصارعه ، فلم يقو على صرعه ، ولم يكن أمر القبض بدء ذلك العراك ، ولكنه كان الختام ــ فما زاد على أن قال له : « اذن فهيا » !

قالها ولم يخط خطوة ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة كالمحجن (١) ــ تلك النظرة التى اعتاد أن نجذب بها اليه

---

(١) المحجن آلة يجذب بها الشىء كالخطاف وغيره